

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

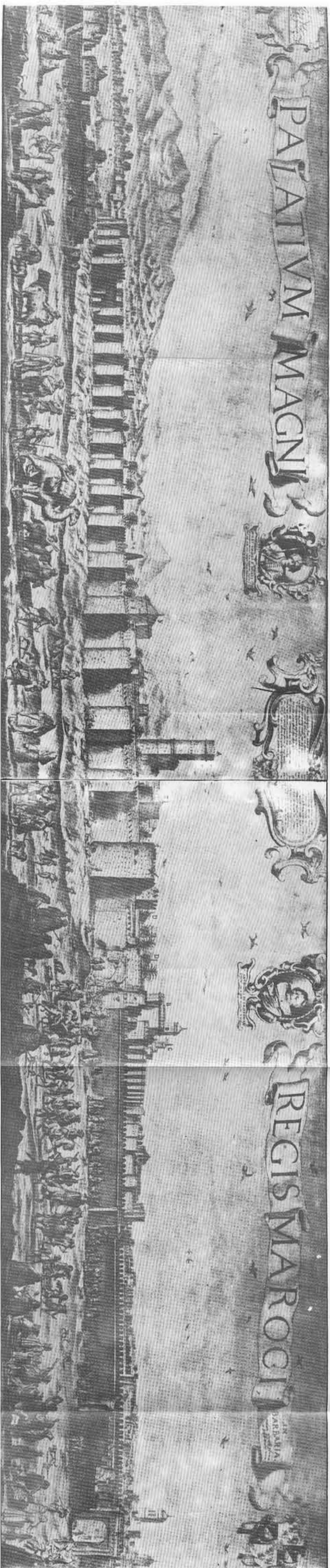
قصر البديع بمرآكس

من عجائب الدنيا
بواعث تشييده
وظروف تخريبه
وعمليات ترميمه



د. عبد الهادي التازي

الرباط يناير 1977



منظر لمراكش عام 1641 حسب لوحة (الريان ماسام)
المطبعة في أمستردام

قصر البديع بمرآة من عجائب الدنيا

بواعث تشييده
وظروف تحزيبه
وعمليات ترميمه

د. عبدالمهدي التازي

الرباط يناير 1977

قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا ... بواعث تشييده وظروف تخريبه وعمليات ترميمه

لقد مهد المؤرخ الفشتالي للحديث عن قصر البديع في كتابه « المناهل (1) » بأن المنصور السعدي « أحمل به ذكر ما صنعه بنو العباس ببغداد وبنو مروان بالشام وبنو عبيد بالقاهرة ... وسائر ما يعزى الى أولى السلطان الأكبر من القياصرة والاكاسرة » . وقد خشى الفشتالي مع ذلك - أن لا يوفى بحق الوصف فاعتذر للذين يقفون من بعده على هذا الاثر الجليل فيجدونه « أجل وأعظم وأفخر وأبهر وأخطر وأرحب وأوسع وأرفع مما قرأوا على حد تعبير المؤلف المذكور » .

وأحب بادئ ذي بدء أن أبرز الأهمية البالغة التي يكتسيها وصف الوزير الفشتالي للقصر المذكور ، ذلك الوصف الذي يظل المرجع الاساسي لكل الذين يكتبون عن هذه المعلمة سواء من المؤرخين او المعمارين (2) ، كما أشير من جهة أخرى الى أن كثيرا ممن كتبوا عن القصر بلغة غير العربية تعرضوا لبعض الهفوات في التقدير والافتراض وخاصة منهم الذين لم يتمكنوا من استشارة نصوص الفشتالي التي كانت في حكم المفقود ...

(1) القصد الى (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) للوزير الكاتب أبي فارس عماد العزيز بن محمد الفشتالي ، وهو يقع في عدة مجلدات على ما يقوله المقرئ في نفعه واليفرنى في زهته ، وقد نشر الأستاذ عبد الله كنون مخطوطا مختصرا للمجلد الثاني عام 1964 ، وظهرت بالخزانة الملكية مخطوطتان لهذا المجلد احدهما تحت رقم 274 وثانيتها تحت رقم 5182 .. وقد نشر المجلد المذكور عام 1972 عبد الكريم كريمة وهو من مطبوعات الاوقاف بالرباط .

(2) ترفق هذا العرض بالنص المتعلق بالبديع من المناهل ، مصححين - قدر الامكان - بعض الاخطاء معوضين بعض الفراغ فيما نشر من المخطوط لحد الآن .

ومن حسن الحظ حقا ان يقدم الفشتالي وصفه كشاهد عيان لذلك القصر الذي لم يبق منه - مع الاسف - ما يستوقف الزائر أو يثير انتباه العابر ، ولقد حجب الي وأنا أستعرض القصور الخلافية التي كان يتم فيها استقبال البعثات الدبلوماسية الواردة ، عبر التاريخ ، على ملوك المغرب أن أقف عند الحديث حول قصر البديع وملحقاته في محاولة لجمع شتات القول ، بهذا العرض المقتضب ، لبعض ما كتب عنه من طرف المغاربة أو الأروبيين ، مقارنة بين آثار هؤلاء وأولئك ، ومسترشدا بالحفريات الحديثة ومتخلصا للأسباب الحقيقية التي كانت تكمن - في نظري - وراء التضحية ببقايا ذلك المبنى العظيم ...

لقد اعتاد الملوك المغاربة أن يخلدوا انتصاراتهم الكبرى بتشييد مبان معلمية تكون في مستوى تلك الانتصارات ، وهكذا فعلى نحو ما قام به المنصور الموحد من بناء الجوامع الثلاثة : (الخيرالدا) في اشبيلية، والكتيبة في مراكش ، وحسان بالرباط ، في أعقاب انتصاره بموقعة الأرك (ALARCOS) بالاندلس ، على نحو ذلك شرع المنصور السعدي على انتصاره على الجيش البرتغالي ومصرع الملك سباستيان في وادي المخازن ، وبعد خمسة شهور من المعركة (شوال 986 = دجنبر 1578) في بناء قصر البديع شرقي القصبة التي كانت بالأمس ديارا للموحدين ، وذلك اشادة بمكانة آل البيت في الجهاد وازهارا لمقامهم الشريف كما ينقل الفشتالي عن المنصور السعدي ، ولقد حرص عدد ممن اهتموا بتصميم القصر من الاجانب - على معرفة اسم المهندس المعماري الذي رسم خطوطه الاولى ... والذي لم يكن غير أمير المؤمنين المنصور الذي كان يسهر - مع ذلك - بنفسه على تنفيذ تصميمه المستوحى دون شك من بعض القصور الاندلسية ...

ولا بد من التذكير بأن قصر البديع - وهو البناية الخاصة بالعاقل - اطلق على سائر « المجمع » الذي يقع بجانب البديع بما في ذلك الدار الكبرى بما تحويه من قباب ورياض ومرافق ...

ولعل اسم البديع - علاوة على ما يدل عليه من معنى جميل ، كان تلميحا للاسم الذي تحمله احدى قباب قصر قرطبة او الذي يحمله احد الرياض التي كانت متغيثا للحماديين ثم للموحدين فى باجة .

ونظرا لضخامة المشروع السعدي ، نجد اعمال البناء الكبرى تستمر طيلة ست عشرة سنة كاملة أى أنها لم تنته الا بتاريخ 1002 = 1594 بل ان بعض الاعمال التكميلية استمرت الى ما قبل وفاة المنصور سنة 1012 = 1603 حسبما تفيدته رسالة صادرة عنه من فاس . يوصي فيها بتركيب سوارى الرخام عند تسقيف بعض الجهات .

هذا بالرغم من ان الاشغال لم تتوقف صباح مساء، وبالرغم من حشد الصناع من كل حدب وصوب بما فى ذلك العمال الواردون من أوروبا أو المتواجدون بالملكة ، وبالرغم من توفر المواد التي كانت تجلب فى الوقت المناسب من الشرق والغرب : من تنيكو الى اوربا والهند والبرازيل ؛ ولا بد ان تصور السوق الصاخب الذي كان يعقد يوميا لتفطية حاجة العمال والصناع بما يحتاجون اليه مما يذكر فى الاسواق الاسبوعية الكبرى

لقد كانت الميزات الاولى للقصر السعدي هذا العدد العديداً من القباب التي تحمل أسماء جميلة وأوصافاً دالة . فهنا قبة الخمينية (3) ، وقبة الزجاج (أو قبة الذهب) ، وقبة النصر ، وقبة التيجان ، والقبة الخضراء ، والحمراء والبيضاء ، والقبة العظمى التي أمر العاهل باختطاطها لاستقبال الوفود المتتالية من الممالك القاصية من المشارق والمغرب ، انها عشرون ، كل منها متحف قائم بذاته ، كما امتاز بطائفة من الصهاريج المختلفة المقاييس والمساحات وقد شيدت على أرض ارتفعت على اصول الاشجار حتى يستفاد من مائها لسقي الحقول المترامية تحتها فى الطبقة الدنيا مما يذكر فيما يحكى عن الجنائن المعلقة فى بابل ، وما يمكن أن يمثل - على سبيل التقريب - بقصر البطحاء (المتحف) بفاس .

(3) سميت كذلك لان فيها خمسين ذراعاً بالعمل على ما يقول المقري فى النسخ أو لان المصاريف عليها بلغت خمسين فنطارا على ما يذكره المعلق على روضة الآس ..

ولا ننسى فى هذا الصدد الدولاب العظيم (4) الذي كان يساعد على التحكم فى المياه صعودا وانعطافا والذي عرفته جنان فاس منذ عهد بنى مرين ...

والحديث عن الحقول والرياض فى قصر البديع حديث مطرف ، فنحن امام ادواح عبقة دائمة الخضرة ، فيها المشتى وكذلك روض المسرة (5) التي زارها المقري اواسط رمضان 1009 = 1601 فروى ان عدد ما اشتملت عليه من اشجار النارج ستة عشر الفا ، عدا سواها من الشجر ، اضافة الى صهريجها العظيم ومبانيها الانيقة ، هذا الى بساين اخرى تستأثر بأسماء ما تزال الآداب الشعبية تردد الهازيج عنها وتنسج الاساطير حولها كجنان الصالحة (6) .

وقد ضرب الزخرف فى « البديع » فى علباء الفنون ، وطرزت جنباته وحتى أستاره بمقطعات شعرية نقشت بمرمر أسود على ابيض وكونت وحدها ديوانا بكامله صيغ على شتى الاوزان لكن القصر احتضن الى كل هذا عددا من رسوم النباتات وعراجين الاعناب وتمائيل الحيوان من عقبان وحيات وأسود .. وهي ظاهرة استأثر بها التاريخ المعماري فى الغرب الاسلامي .

والحديث عن مرافق القصر يكشف عن تفوق (البديع) على كثير من المعالم الانثوية التي تعرف باسم عجائب الدنيا ويضيف بدائع اخرى يعتبر الحديث عنها ، على ذلك العهد من قبيل الخيال والافتراض ، ونشير على

(4) الدولاب ليس هو المركبة التي تحدث عنها السفير البرتغالي عند زيارته لسلطان المولى اسماعيل فى قصر البديع ، والتي قال عنها ان العاهل يدفع بها بواسطة محرك من داخل احدى القباب ليتفصح بها فى برك الرياض ، ويظهر ان هذه من منشآت أبناء المنصور ..

(5) كانت المسرة من انشاء الموحدين لكن المنصور أضفى عليها من عنايته ما أعاد بهجتها وكانت تقع حيث أكدال الحالية . الدر المنتخب لابن الحاج ، مخطوط فى الخزانة الملكية ، رقم : 1875 .

(6) تصور المرددات الشعبية جرادة رعت من فواكه جنان الصالحة فتخطبها هكذا :
-أجرده مالحة : * فاين كنت سارحة ؟ - * فى جنان الصالحة ؟
أش قلت ؟ وآش شربت ؟ * التفاح النفاح
يا قاضي يا مفتاح * الخ ..

الخصوص الى ما يمكن ان نسميه بالتدفئة المركزية التي كانت تنساب عبر الانابيب النحاسية بواسطة المياه المكيفة باردة ساخنة حسب رغبة الحاجة ! كما نشير الى الحمام الرائع الذي أعطى الفشتالي وصفا دقيقا له يترجم هو الآخر عن العبقرية التي طبعت الفكر المغربي .

لقد قام الحمام على خمسين عمودا ،وزود بأربعة أبواب فيها ما يفضي لقصر السلطان ، وفيها ما يؤدي الى قبة التيجان ، والى البديع والى باب القصر .. وقد قامت فى داخله تماثيل أسود من المرمر ينساب الماء من افواهها الى الحوضين المعدلين للهواء اضافة الى المسجد العديم النظير (7) .

وتتوفر غرف القصر - وخاصة منها غرف الحرير - على خزنة طعام متحركة تتجه وحدها بصفة آلية من المطبخ الى مقام الاميرات ، مما يشبه المصعد (Elévateur) المعروف اليوم فى الفنادق الكبرى .

وقد ضم القصر الى كل هذا دنيا أخرى من السرايب تحت أرضه تحتوي على عدد من المشتملات والبيوت والمقاصير والمخازن والمطابخ والمفاصل تمكن المئات من الخدم والحشم من أداء مهماتهم فى غيبة مر الضيوف والزوار ، وبدون أن تظهر الاستعدادات الاولى للتحضير فيفاجأ المدعوون بما لذ وطاب من مباني القصر السفلى التي كانت تتوفر على « الضياء الفائض الشعاع النافذ من خلال الشبايك الحديدية » .

وقد فاقت « مدينة الممالك » التي خططها العاهل بين قصره وبين مدرسة الامراء ، فاقت بما يجري تحتها من جداول وأنهار ، بغداد ودجلتها وجلق وغوطتها وقاهرة مصر ونيلها على حد تعبير الفشتالي . هذا علاوة على (برج الامن) على مقربة من البهو الذي ينفذ الى المسرة من القببة العظمى حيث الانفاط القاذفة لمارج البارود وشواطئ النار ...

(7) تذكر بعض المصادر الاوروبية ان قصر البديع لا يتوفر على مساجد ، وهو تساهل واضح فقد كانت المساجد مثبتة فى جل جهاته كما يفيد الفشتالي .

ولقد استطاع هذا المؤلف بوصفه الرائع أن يقدم تخطيطاً مضبوطاً لا يقل عن التصميمات واللوحات التي رسمها المهندسون والفنانون الأوروبيون الذين تواردوا على العاصمة المغربية أو كانوا مقيمين فيها بحكم ظروفهم .

وهكذا تجلت بفضل تصميم برتغالي مخطوط في الاسكوريال ، للقضية السعدية ، خط منذ سنة 1585 أثناء بناء البديع ، وبفضل تصميم ثان أعده المهندس المستشرق كولوس (COLUIS) أحد أعضاء البعثة الهولندية (8) برئاسة ألير ويل (ALBERT RUYL) الذي استقبل من لدن السلطان زيدان بقصر البديع يوم 10 شوال 1032 = 7 غشت 1623 ، هذا التصميم الذي أورده ويندس (Windus) في كتابه عن السفارة الانجليزية برئاسة ستوارت لدى بلاط السلطان المولى اسماعيل بمكناس أورده - تساهلا - على أنه تصميم للقصر الملكي بفاس ، بفضل هذين التصميمين . تجلت بعض الجوانب من نصوص الفشتالي حول البديع .

كما تأكدت تلك المعلومات القيمة عن طريق الافادات التي قدمها بعض الذين شاهدوا أو سمعوا من الاجانب عن قصر البديع من امثال الرسام أدريان ماثام (ADRIEN MATHAN) الذي رافق بعثة دبلوماسية هولندية استقبلت بقصر البديع في أوائل ذي الحجة 1050 = منتصف مارس 1641 من طرف السلطان محمد الشيخ بن زيدان والذي نعت قصر البديع بأنه « أعجوبة المعجائب (9) » (Le merveil des merveilles) وكذلك من امثال طوماس لوجاندر وامثال الاب ماثياس (Mat'as) . . . وكذلك من امثال السفير البرتغالي انطونيو دى سيلفا (Antonio de Silva) الذي استقبل في قصر البديع من لدن السلطان المولى اسماعيل سنة 1088 = 1677 .

وان أحدث تصميم يمكن أن نتصور به مباني قصر البديع هو الذي خططه ، مشكورة ، مصلحة الآثار أثناء الخمسينات والذي نشره

(8) عن طريق هذا المستشرق كولوس انتقلت مخطوطة تاريخ ابن صاحب الصلاة حول الموحدين انتقلت من المغرب الى هولندا قبل أن ترحل الى انجلترا حيث تحتضنها مكتبة بودليان باكسفورد . راجع مقدمتي حول هذا الكتاب ..

(9) دوكاترى : هولندا المغرب س 1 م 4 ص 572 .

البروفيسور دوفيردان في الستينات تكلمة اكتبه عن مراکش مصحوبا
بجملة من التفسيرات والايضاحات التي تحتاج لبعض التعقيبات في ضوء
المعلومات القيمة التي قدمها الفشتالي .

لقد ظل الحديث عن المبنى الخاص لسكنى السلطان المنصور في
الجانب الشرقي ، والذي اطلق اسمه (البديع) على سائر القصور
والقاعات الملحقة به ، ظل عاما يكتفي بأنه « ترجمان العجائب » وبوصف
الايوان العظيم الذي يشرع اليه منه في مدخل لا تحصى لبياته ...

لكن الدار الكبرى التي يفضي اليها من قصر البديع هي التي نالت
الحظ الاوفر من الحديث المنشور والمنظوم .

لقد دارت قوراؤها على خمسمائة عمود من المرممر بينما قامت
القباب والبراطيل (10) على مائة منها ، وتوسطها فناء فسيح الارجاء
يبلغ 135 ميترًا طولًا على 110 عرضًا : هكتارًا وأربعة آلاف وثمانمائة
وخمسين مترا مربعا : 14850 .

وفي هذه الساحة تمتد البركة العظيمة المستطيلة من 90 مترا على
20 = 1800 ، وقد انتصبت وسطها خسة (11) كبرى من المرممر تحتوي
على حوضين اثنين يعلو أحدهما الآخر ، وتنتهي بأنبوب تتفجر منه المياه ،
ويمكن الاقتراب من الحوضين المتراكبين بواسطة ممرات حملت على
سوارى من رخام .

وعلى ضفتي هذه البركة يمتد على مستوى منخفض سماطان أطول
قليلا من البركة حافلان من 34 مترا عرضا غرسا بأدواح الأشجار والزهور
المختلفة الالوان ، وقد ازدانا بمماشي طرزت بالزليج المنمنم على اختلاف
الالوان .

(10) البراطيل جمع برطال وهي الاصطلاح المغربي ، عبارة عن ممر مقنطر ، وقد يسمى
أيضا النبع ...

(11) الخسة : في العامية المغربية : حوض من المرممر يتوسطه أنبوب يندفع بالماء يشبه
شكله شكل الخص : البقل المعروف وباسمه سميت فكانها خسة مفتوحة ، وينطق
بها العامة بالصاد بدل السين .. على ما يقوله الامتاذ كتون فرارا من معنى الخساسة

وفى زوايا تلك الساحة الكبرى توجد أربع برك أخرى مستطيلة من 30 مترا على عشرة .. والبرك جميعها يمكن النزول إليها بواسطة درج مزلجة هي الأخرى .

وبين البرك الأربعة الصغيرة ، وعلى الطرفين الطويلين للبركة الوسطى للبركة الوسطية الكبرى ترتفع قبتان عظيمتان أحدهما غربية وهي « الخمسينية » التي ينتصب فى الرفرف المحيط بها تماثلان لعقابين عظيمين ، وقد امتازت الخمسينية بسقفها البالغ أقصى مبالغ الجفوة ، وقد بلغت المنارة التي تسنم المعلمون ذروتها لتأليف السقف الضخم سبعمائة حمل من أخشاب الأرز ومائة قنطار من الحديد ... وقد شقها حوضان أيقان تتوسطهما فوارات وتماثيل مذهبة ومفضضة بين أسود وحيات وطيور (12) وبين الحوضين تربعت خصة غربية الشكل بدعنة التركيب ساحرة اللون .

وللخمسينية بهو فى صدرها ذهب بكل محاسن البناء ... وقد أفرغ الفنانون فى أبوابها الثلاثة ومصاريعها وعضاداتها قمة ما يتوفرون عليه ...

وبين يدي كل باب فوارة ضخمة متباعدة القطر ... امتد منها ذات اليمين وذات اليسار برطال عريض الساحة متعدد الأقسام ، القائمة على سوارى من حجر كريم اليبص (jaspc) ويعلو الخمسينية تيجان متعالية نقص عدد تفاحات أعمدتها عن عدد تفاحات صوامع المساجد الكبرى أدنا وتوأضعا ...

وفى مقابلة الخمسينية تنتصب فى الجهة الغربية (قبة الزجاج) ، وهي من مساحة 15 م على 16 : 240 متر مربع ، وقد علا سقفها قطع من

(12) يقصد بالطيور دون شك الصقور والبزاة ، وهي من المعلوم ان المنصور السعدي كان كاسلافه ملوك المغرب القدامى من هواة القنص بالصقور وشهد بذلك المراسلات والبعثات الدبلوماسية التي كانت ترد من والى أوربا تحمل معها الهدايا التقليدية : الصقور والبزاة مع ما يصحبها عادة من تجهيزات تمثل فى (البرقع) ومن الجلجل والغلخال والسمايك ومجادل الحرير .. الناظر : الصقور فى الحياة المغربية ، البحث الذي قدم للملتقى الدولي لدولة الإمارات العربية المتحدة ، دجنبر 1976 .

الزجاج (الكريستال) الملون ، فاذا اشرفت الشمس عليها « رأيت نعيما وملكا كبيرا » على حد قول الفشتالي ، وقد احتلت وسطها فوارة من مرمر اخضر زادت فى بهائها وجمالها ، وقد اكتنف ابوابها الثلاثة برطال عريض تعانقت فيه أعمدة المرمر فى مناجاة دائمة ، وقد تنوع سقف برطال قبة الزجاج الى سبع قباب ، تحت كل منها فوارة ...

وإذا كان بهو الخمسينية موصل على ما يبدو فان بهو قبة الزجاج يشرع منه الى (روض المشتى) بواسطة باب عظيم رائع التطيريز والتوشيح ، وقد حملت القبتان الخمسينية والزجاجية على اثنتي عشرة سارية من أجود وأرفع الرخام ، ويمكن أن تعتبر القبة التي بناها المنصور السعدي على الخصة المهداة منه - كذوقه - لجامع القرويين والتي حملت على اثني عشر عمودا رخاميا شرقي الصحن ، مثلا صغيرا يقرب الصورة الكبرى .

واضافة الى هاتين القبتين توجد قبتان اخريان احدهما شمالية وهي (قبة النصر) ذات المحاريب والخزائن والمنافس لامتصاص دخان الشموع ... وقد امتاز سقف بهو هذه القبة بأنه صنع من منحوت العاج والابنوس وكانما رقمت بالابر اللطيفة ، وقد انتصب امام القبة فوارة عظيمة ترقص بالمياه المتصاعدة بينما انعطف برطالها يمينا ويسارا على قسى تعتمد على سوارى رشيقة من رخام ...

ويساجل قبة النصر على الضفة الجنوبية (قبة التيجان) ، ذات الابهاء الفسيحة وقد امتازت عن غيرها بابدع الصنائع المقربسة التي وشت وجناتها بشامات زرق من سحيق اللزورد المزمل بالنظار الفائض الشعاع على المحاريب والمقاصير ، وحسب لوحات الرسام أدريان ماثام الذي رافق السفارة الهولندية فان هذه القبة مخصصة للحريم ...

وهاتان القبتان اكبر مساحة من السابقتين ، اذ انهما من 15 على 23 مترا أى ان كلا منهما يحتوي على 345 متر مربع ، وهما تتأخران قليلا عن الممشى الممتد شرقا وغربا ...

وفى كل زاوية من الزوايا الاربعة شيدت ردهة كبرى زودت هي الاخرى ببرطال لكل واحدة ... اضافة الى ما سمعناه عن القباب الخضراء والحمراء والبيضاء .

وتميزت أركان القصر الاربعة بمنارة تنتصب فى كل منها ، على نحو تصميم برج النفار بجامعة القرويين (13) واستأثر احد هذه البروج - وهو الواقع فى الركن الشمالي الشرقي على ما يؤخذ من الوصف - بأنه يؤدى انى المنزه او المصرية (14) الشامخة ، المرتفعة على القبة الخضراء والمظلة على رياض المسرة والتي كانت تسامي منارة الكتبيين .. « ذات العرف الاثيرة والشراجب البديعة والمجاسس الكريمة » التي يشرف منها العاهل على شتى الاطراف .

وإذا كانت عظمة البيوت تتجلى فى أبوابها فان البديع احتسوى على أبواب رئيسية وثانوية سواء فى الشرق أو الغرب أو الجنوب لكن اعظمها كان هو باب الرخام الذي يقع عند الركن الغربي الجنوبي ..

+ × +

وقد اجتمعت كلمة زواره من الدبلوماسيين او الرسامين او الاسرى على انه تحفة العصر وعنوان العظمة ودليل التوازن ، وما بالك بقصر جنب بعض مواده من اقاصي الدنيا وارسلت السفارات لايرلاندا من اجل ارضاء مطاب المنصور حوله ... واشترى رخامه من ايطاليا وزنا بوزن بالسكر الذي كانت تنتج المعاصر والمعامل المتناثرة فى الجنوب والذي كانت القصور الملكية فى أوروبا تتباهى بتقديمه لكبار ضيوفها وزوارها ...

(13) من المهم أن نلاحظ فى لوحة ماثم سنة 1641 بل وفى رسم ثان من لعلى باي سنة 1803 برجا يظهر كأنه جوار منارة الكتبية يشبه تماما مما يجعلنا نعتقد أن برج مراكش - وهو آثار البديع - صمد الى مطلع القرن التاسع عشر ...

(14) المصرية : تعني فى الاصطلاح المغربى البيت الصغير المحمول على مرافق الدار ، لكن مصرية قصر البديع كانت تناسبه عظمة وروعة ..

وهكذا تتفق الرواية العربية مع الرواية الاخرى على انه كان « جنة على ارض مراكش » .

ومن هنا انطلقت السنة الشعراء متبارية في تقديم أجود الشعر الذي يحظى بالنقش على أبرز الجوانب وأهم القاعات سيما وقد صادف الاعداد للاحتفال وصول البشريات بفتح (كاغو) عاصمة امبراطورية شنغاي ذلك الفتح الذي تم يوم 16 جمادى الاولى 999 = 12 مارس 1591 .

وقد كان مما انشد في هذا « البديع » ما نظمه المنصور السعدي نفسه :

بستان حسنك « ابدعت » زهراته ولكم نهيت القلب عنها فما انتهى
وقوام غصنك بـ « المسرة » ينثي يا حسنه رمانة لـ « المشتهى »

وقال ايضا :

نهر المسرة أن يسـل منه الرحيق الاطيب
الطير منها تنتقل والفصن فيها يشرب

وقد كان مما نظمه أبو فارس عبد العزيز الفشتالي في الدار الكبرى بائية أورد المقري بعضها معتذرا بنسيانه لاولها :

سلبت تماثلها الحجا لما اغتدت تزهو بحسن طرازه تذهيبا
ولقد تشامخ في العلو سماكها فجرا على الفلك المنير جنيبا
وسما الى الشهب الزواهر فاغتدا الاكليل منها تاجها المعصوبا
هذا البديع يعز ، شبه بدائع ابدعتهن به فجاء غريبا
أضنى الفزالة حسنه حسدا له أبدى عليها للاصيل شحوبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا أنجزن وعدك للعلا المرقوبا .

+ × +

فانعم بملكك دام فيه مؤبداً يجنى به فنن النعيم رطيباً ...

وكان مما قيل في البديع كذلك :

كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب الجنا وفيه يشم
منظر رائق وماء نيم وثرى عاطر وقصر أشم
ان مراكشاً به قد تناهت مفخراً فهي للعلا الدهر تسمو

وقد أسهمت الموشحات في الإشادة بهذا البديع على ما يرويه
المقري في « روضته » التي أوردت قطعة لم يعرف صاحبها نذكر منها :

بدر علا في البديع منازلاً كالدراري
فيا له من صنيع الروض والماء جاري

ومما يستجاد في « البديع » قول أبي مالك عبد الواحد بن أحمد بن
الشريف الحسن بن العلوي في سقف قبة الزجاج (15) :

اجل اللواظ في رقوم لباسي فلها به حرس من الأحراس
فمتى نظرت فان طرفك مورد للقلب اعذب من رحيق الكاس
ومتى تنافست القباب فانني ببدايع الفردوس كان قياسي
او ما رأيت النهر تحتي جارياً والدوح يعبق من حنايا آس!

+ × +

(15) ورد في ((رسائل سعدية)) أنه سئلت منه قصيدة لنقشها في سقف قبة الزجاج فأجاب بانها من بحر الكامل على روى السنين المهمة . راجع نص جواب ابي مالك عبد الواحد اوزير القلم المنصوري ابي عبد الله محمد بن عيسى رحمه الله . كنون : رسائل سعدية ، ص 210 - 211 .

من كل قطر وأفدين وفدفد
والعجم من أقصى البلاد عنت له
فأتت تخوض البحر من قسطينة
والروم جاءت رسلها من رومة
'فلا أطاول للثريا أذنها
متباين الاوصاف والاجناس
فزعين فى الآجام والاخياس
وتشقى كل ثنية ووهاس
متخوفين لبطشه والبياس
والبهو منى كاشف الاغلاس . . .

وقد اسهم الوزير أبو فارس الفشتالي بطائية طويلة كانت مما نقش
بظاهر القبة الخمسينية ، يقول منها :

سموت وخر البدر دونى وانحطا
اذا اتسقت بيض القباب قلادة
تكنفني بيض الدمى فكأنها
قدود ولكن زادها الحسن عريها
نمت صعدا تيجانها فتكسرت
واصح قرص الشمس فى أذنى قرطا
فانى لها فى الحسن درتها الوسطى
عذارى نضت عنها القلائد والريطا
وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
قوارير افلاك السماح بها ضفطا

+ × +

اقرت له «الزهران» و«الخلد» وانتقت
يد لامير المؤمنين بكفها
أواوين كسرى الفرس تفيطه غبطا
زمام يقود الروم والفرس والقبطا!

وكان مما نقش بداخل القبة الخمسينية من شعر أبى فارس :

جمال بدائعي سحر العيوننا
علوت دوائر الافلاك سبعنا
ورونق منظري بهر الجفوننا
لذاك الدهر ، ما الفت سكوننا
اساور والخلاخل والبرنيانا
فصغت من الأهلة والحنايانا

هو المنصور حائر خطل سبق وباني المجد بنيانا مكيــــــــــــنا
وليث وغى اذا زار امتعاضا يروع زئيره هندنا وصينا !
امام بالمغارب لاح شمسا به الشرق اكتسى نورا مينا

وكان مما نقش أيضا على بهو الخمسينية بمرمر أسود على أبيض مما
يذكر - من حيث خطوطه - فى نقوش (تاج محل) بالهند ، ومن حيث
فواراته مقام القيصر فى (بيتر سبورك) هذه الرائية التي نقتطف منها :

لله بهو عز منه نظير لما زها كالروض وهو نظير
شأوا القصور قصورها عن وصفه سيان فيه خورنق وسدير
فاذا اجلت اللحظ فى جنباته ترتد وهو بحسنه مسحور
وكان موج البركتين أمامه حركات سجف صافحته دبور
صفت بصفتها تماثيل فضة ملك النفوس بحسنها تصوير
ما بين آساد يهيج زئيرها وأسود يسلي لهن صفير
يا حسنه من مصنع ! فبهاؤه باهى نجوم الافق وهي تنيــــــــر

+ × +

ملك أناف على الفراقد رتبة واظله فوق السماك سريــــــــر
وجرى الى أقصى العراق لرعيها جيش على جسر الفرات عبور
وللكاتب ابي عبد الله محمد بن علي الفشتالي حائية طويلة نظمها ايضا
لتكتب على القبة الخمسينية جاء فى أولها :

الى حيث اطناب المعالي فساح وزند الاماني ليس فيها شحاح

+ × +

ألى ان يقول فى معرض ظفر الجيش المغربى على الجيش البرتغالى
فى معركة وادى المخازن :

وحسبك من (وادى المخازن) اذ طمت

بحار الردى والخيل فيها جمـاح

فكان به كالصقر (16) ينقض ظافـرا

تساعد منه مخلب وجنـاح

وقد نال الحايطي فى (الخمسينية) وهو فى العرف المغربى الستور
التي تكسو الجدران ، نال حظاً من الشعر ، وهكذا نجد بعض الكتاب
يخصه بأربع قطع سينية كل واحد تخص جهة من ألقبة ، وقد كانت
القطعة الاولى :

متع جفونك فى بديع لباسي وادر على حسني حمى الكاس
هذى الربا والروض من جرعائها مااغتنى بالعارض البجاس
انى لروض ان يروق بهـاؤه مثلى ، وان يجري على مقياس
فالروض تفشاه السوام وانما تأوى الى كفى ظباء كناس
وكانت القطعة الثانية :

من كل حسن كالقضيب اذا انثنى تزرى بعض البانة الميـاس
ولقد نشرت على السماك ذوائبى ونظرت من شزر الى الكناس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثا فخرا بمخترعي ابي العباس
ما نيظ مثلي فى القباب ولا ازدهت بفتى سواه مراتب وكراسي

(16) للحديث عن الصقر فى الحياة المغربية ... راجع البحث المقدم الى الملتقى الدولى
للصقور ، دجنبر 1976 .

وكانت الثالثة :

ملك تقاصرت الملوك بعـزه
غيث المواهب ، بحر كل فضيلة
فرد المحاسن والمفاخر كلها
ملك اذا وافى البلاد تارجست
ورماهم بالذال والاتعـاس
ليث الحروب مسعر الاوطاس
قطب الجمال اخو الندى والباس
منه الوهاد بعاطر الانفـاس

وكانت الرابعة :

واذا تطلع بدره من هالـة
ايامه غرر تجلت كلها
لا زال للمجد السنى يشيده
ما مال بالفصن النسيم وحببت
يفشى سناه نواظر الجـلاس
ابهى من الاعياد والاعـراس
ويقيم مغناه على الاسـاس
درر النداء فى جـيده الميـاس

وحتى مستراح الخمسينية حرك من شاعرية الادباء فنجد الوزير
الشيظمي وقد استأثر بلبه جمال النقوش يقول ملمحا لتاريخ البناء :

اكتنف الحسن محلى ولاح تاريخه من لفظ هو المستراح
وقد احتفظت (روضة الاس) ببائية لابي فارس لتكتب فى بعض
ستور قصر المنصور او تنقش فى جدرانها ، قال فيها :

ما طراز الربا بأيدي الحساب
واحتفال الرياض بالنور لها
وكعاب تصمى اذا لاح منها
وحباب كالانجم الزهر يعلو
واعتلال النسيم بين الهضاب
رفع القطر عنه ثوب السكاب
بدر وجه مستر بنقـاب
قرقفا لونها كلون الشهاب
عندما قد ابان برد التهـاب
خلع المزج ثوب تبر عليها

بمثير الغرام مثلى اذا ما
ان تأملت رونقي واتهاجبي
وارث المجد من علي ومن قد
جال طرف ساحتي وجنابي
تتعرف حقيقتي وانتسابي
صير الكفر للردى والتسباب

+ × +

عمة المنصور الامام الذي لا
دام فى مقعد من العز يروي
ينثني عزمه لغير صواب
من امانيه كل فصل وبسباب

وقد كان مما قاله الوزير الاديب ابو الحسن علي بن منصور الشياظمي
مما نقش على (برطال) قبة الزجاج هذا البيت الاخير الذي يلمح فيه
لتاريخ اكمال البناء :

ان شئت تاريخ كمال البديع فقل
ايوان احمد ايوان السعدانات
ولم يكن حظ الجهات الاخرى بأقل منه فى القباب ، وهكذا نقرأ لابي
فارس أيضا مما كتب على « المصرية » السالفة الذكر :

باكر لدى من السرور كؤوسا
واعرج على غر فى المنير سماؤها
واذا طلعت بأوجها قمر الملا
شرف القصور بريقها لما اجتلت
واعترضت بالمنصور أحمد ضيفما
دامت وفود السعد وهي عواكف
وهناك يا شرف الخلافة دولة
وأرض النديم أهلة وشموسا
تلق الفراقد فى حماى جلوسا
لا ترتضي غير النجوم جلوسا
منى على بسط الرباش عروسا
وردا تخير من بديع خبسا
تصل المقييل لدى والتعريسا
تلقى برؤيتها طلائع عيسى

كما خصص أبو فارس لعضادتي باب لاحدى القباب وهو ينسب
- مع كل هذا - سر عظمة البناء وجماله وحسنه الى الذين يسكنونه لا الى
البناء نفسه :

يا ناظرا بالله قف وتأملـي وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتنقل « السر فى السكان لا فى المنزل»

واه ايضا مما نقش على مصاريع بعض الابواب :

هدى وفود السعد نحوى تنتمي ، وطلائع البشرى لبابي ترمي
وسمت الى عرفان عرفك مثل ما يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بمصراع السعود بشائر لاحت على الشرفاء مثل الانجم
اولى بصنع ان تقول ولا تبلى فبديع احمد جنة المتنعم (17)؛

واذا كان المقري قد اكتفى بالاشارة لما نظمه الكاتب الشاعر الحسن
المسفيوي حول البديع من موشحات طريفة فانه اورد مقطعات اخرى
للوزير الاديب ابي الحسن علي بن منصور الشياظمي يقول فى احداها وهي
باب الرخام وقد تضمن الاشارة لتاريخ بنائه عام 1002 :

الحسن لفظ وهذا القصر معناه يا ما أميلح مرآه وأسناه
فهو البديع التي رآقت بدائمه وطابق اسم له فيه مسماه
صرح اقيمت على التقوى قوائمه ودل منه على التاريخ معناه
ولاح ايضا وعين الحفظ نكلأوه تاريخه من تمام : قل هو الله

وقال الوزير المذكور أيضا فيما نقش على هذا الباب الرئيسي :

(17) يذكر الفشتالي ان الخليفة المنصور انتقد استعمال كلمة الجنة فى هذه القطعة مما
يؤكد الشهور الديني الذي كان يتحلى به الخليفة .

باب أنى كبراعة استهــــــــــــــــلال
ولذلك سمى بالبديع وجاء بالتجني
وأتى التمام فقلت فى تاريخه
صرح على التقوى من الله أنبنى
وكانما القصر القصيد التالي !
ســــــــــــــــس والاغراق والايــــــــــــــــال
بيتا بلا عقد ولا اشكــــــــــــــــال
فى طالع للسعد والاقبــــــــــــــــال

وقال أيضا فى تاريخ أتمام البديع :

يا مالكا ملكه فيمن ملــــــــــــــــك
تم هذا القصر فاسكنه على
كطلوع الفجر من بعد الحلاك
حسن حال بدوام الملك لــــــــــــــــك

وقد سحرت (المسرة) كل الذين نعموا بأريج طيبها ولذيد نعيمها .
ومن المؤسف أن تسطو العثة على قصيدة أوردها المقري فى روضته
تبتدىء هكذا :

أنا المسرة لا شيء يشاكلنى من حل بي من لاعج الكرب . .

ومما قاله عبد العزيز الفشتالي :

دامت طيور السعد وهى غوادر (بالمشتهى) لك و(المسرة)تنطق(18)

لقد أصبحت مباني قصر البديع معالم بارزة فى العاصمة مما يشير
إليه قول الكاتب التحرير محمد بن عبد الواحد الحسني وقد تراءت إليه
من باب أغمات حيث ضريح العلامة ابن البناء - قبب البديع الاحمدي، قال :

انظر الى قبب البديع عشية فبحسناها تتمتع الابــــــــــــــــصار
فكأنها قد شيدت من زبرجــــــــــــــــد وكانما شمس الاصيل نظــــــــــــــــار

وهذا الشاعر هو الذي خاطب المنصور بهمزية يقول فيها من جملة
ما يقــــــــــــــــول :

(18) المناهل ص 140 ، عدد اكتوبر 1972 .

قد اصبحت حمراء مراکش بكم من بعد ما طال عليها عفاء

تعنو لها البيضاء والسوداء والشهباء والخضراء والزرقاء

لقد كانت فرحة المنصور بالفة بانهاء أعمال البناء فى قصر الامة ، الامر الذي تترجم عنه الحفلات المتوالية الكبرى التي اقامها المنصور السعدي لمختلف طبقات الشعب ، وكذلك المبالغ الضخمة والهدايا الفاخرة التي نثرها على العمال والزوار والمدعويين (19) . . .

وقد ظل البديع منذ نهاية البناء المركز الاول فى الدولة لتنظيم البعثات الدبلوماسية التي رددت صدى القصر من مختلف دول أوروبا . . . وآسيا . . . كما كانت محفلا يلتقي فيه أعيان الدولة بمناسبة الايام الاسلامية وبخاصة ليالي رمضان وأعياد المولد النبوي ، وخاصة أيضا بعد النصر الضخم الذي حققه المنصور على امبراطورية شنغاي والذي كان موجها فى الواقع ضد طموح العثمانيين لتطويق المغرب واكتساب نافذة على المحيط الاطلسي !

+ × +

لكن القصر - وهو على ما عرفنا - أمسى ، اثر وفاة المنصور السعدي ، واختلاف كلمة بنيه من بعده ، هدفا لعدد من أعمال التخريب الناتجة عن الصدام المستمر من اجل الاستيلاء على العاصمة مراکش ، وعلى مركز الحكم فيها : قصر البديع . وهذه هي الحقيقة التي تؤيدها الروايات الاوربية كذلك .

وهكذا فبعد المعارك التي نشبت بين ابي فارس المبايع بمراكش سنة 1012 = 1604 وبين الامير زيدان وفرار هذا الاخير لتلمسان ، شبت الحرب بين عبد الله بن الشيخ الذي نهض لمقاتلة عمه ابي فارس

(19) يروي اليفرنى ان ممن دخل البديع أيام الاحتفالات احد المجازيب وقد ساله المنصور مباسطا عن رأيه فى الدار الكبرى فأجابه بهذه الكلمة التي تظير منها المنصور : ((اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب)) .

فأستولى على العاصمة مراكش فى شعبان سنة 1015 = دجنبر 1606 مبيحا للجيش العيث والنهب ولا بد أن تصور من الآن اثر هذه الاحداث على البديع : الحريق والتهديم والنهب .

ولم يلبث الامير زيدان ان عاد للعاصمة مراكش بعد أن كون محلة فى مهجره فاقتمها اوآخر 1015 = ابريل 1607 ولكن ليرجع عبد الله بن الشيخ من جديد فى السنة الموالية بعد حروب مضية ينتصر فى نهايتها زيدان مرة اخرى ، شوال 1016 = يراير 1608 بعد أن أمده حلفاؤه مرة اخرى ، وهنا نجد نية الامير زيدان تتجه لاعادة ترميم القصر حيث نجد صفقة مهمة لشراء العود (البقم) من البرازيل ، وقد مر العود فى طريقه الى المغرب عبر هولاندا حيث احتجز هناك رغم تدخل السفير حمو بن بشير حسبما تفيده رسالة من السفير الى الولايات العامة من (لاهاي) بتاريخ 18 نونبر 1609 . ومن المؤسف ان نشبت فى أعقاب هذا ثورة ابن ابي محلى سنة 1019 = 1611 الذي انتزع مراكش من الامير زيدان الذي استصرخ بأنصاره من جديد واستعاد بعد ثلاث سنوات فقط (20) مراكش بعد حروب مهولة كانت سبب خراب مراكش ، وعشا كانت السفارة التي بعثها للقسطنطينية برئاسة عبد العزيز التغلبي من اجل الحصول على المزيد من العون فان عاصفة بحرية أودت بالعتاد الذي أرسلته القسطنطينية . . .

وقد زاد فى محنة العاصمة مراكش تلك السلسلة من المجاعات الضارية والابوئة الماحقة التي عكست أثارها على تلك القصور بما كانت تحتضنه من تحف وآثار !

وقد قصر من أيام السعديين أو بالحرى من حياة قصر البديع ان الوليد بن زيدان الذي خلف أباه فى الحكم لم يكن فى مستوى والده العظيم سلوكا وشهامة نفس ، وهو الذي أثر عنه جوابه لجنده السدي طالب بالمرتب ، بهذه الكلمة العابثة التي كانت سبب نهايته ، قال لهم :

(20) يرمز المؤرخون لايام ابن ابي محلى بهذه العبارة الدالة : ((قام (طيشا) ومات (كبشا) !)) .

« كلوا قشر النارج بالمسرة »

لقد اجهز الجند عليه رمضان 1045 = يبرابر 1636 ، وكانت نكبة اخرى لقصر البديع ، وبالرغم من محاولة ابنه محمد الشيخ (الصغير) استتباب الامر لكنه لم يلبث أن لقي حتفه سنة 1064 = 1654 وتولى ابنه احمد الذي ثار عليه أخواله (الشبانات) فقتلوه سنة 1069=1659 بعد حصار لمراكش والبديع عددا من الشهور . . .

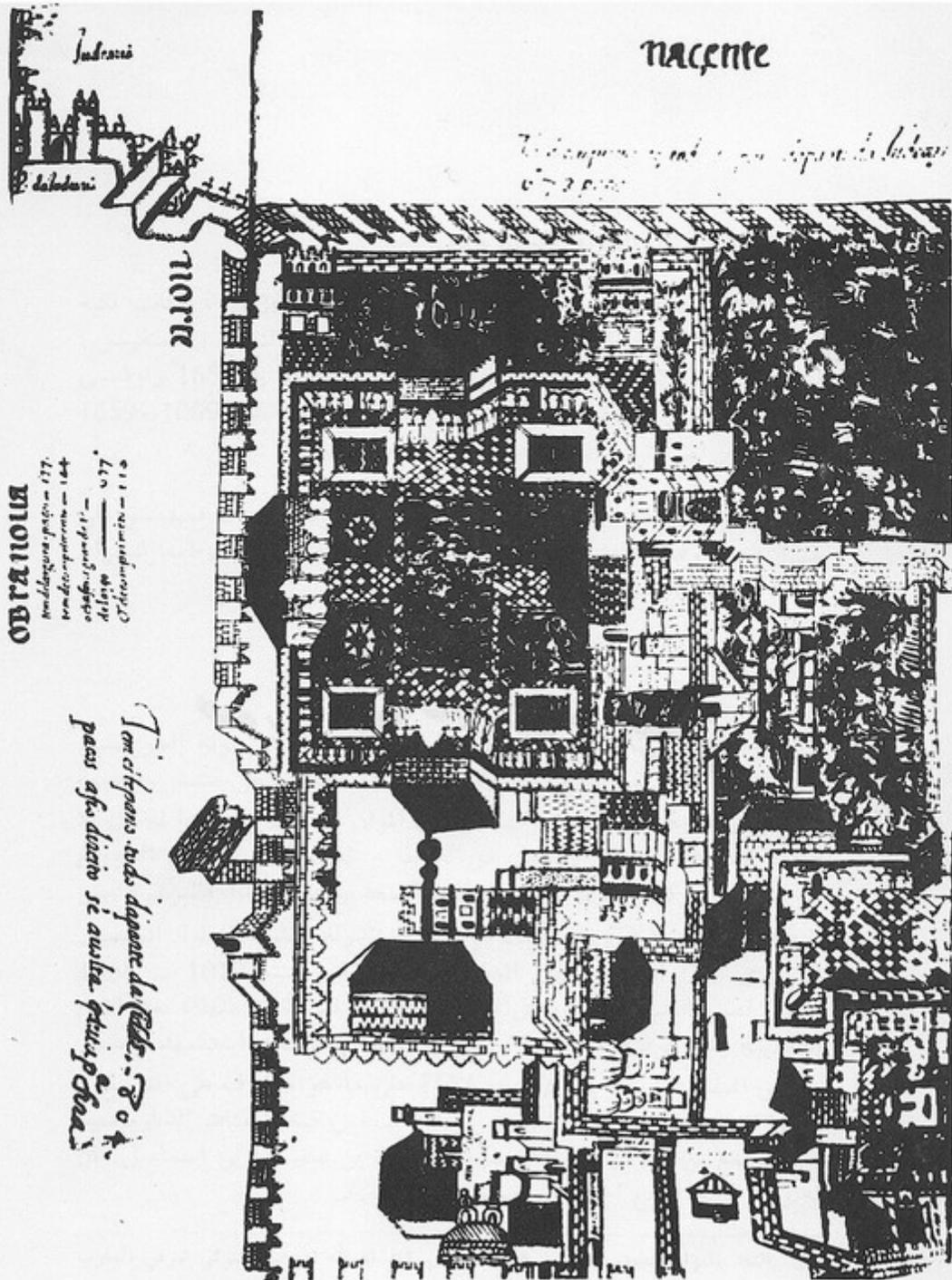
وهكذا نشاهد ان ذلك القصر الذي كان يترقب اعواما تسهر على صيافته وظروفا تساعد على العناية به أمسى عرضة للقذائف وطمعا للنيران ومثلا للاهمال ونهبها بين المتربصين والمتطلعين .

+ × +

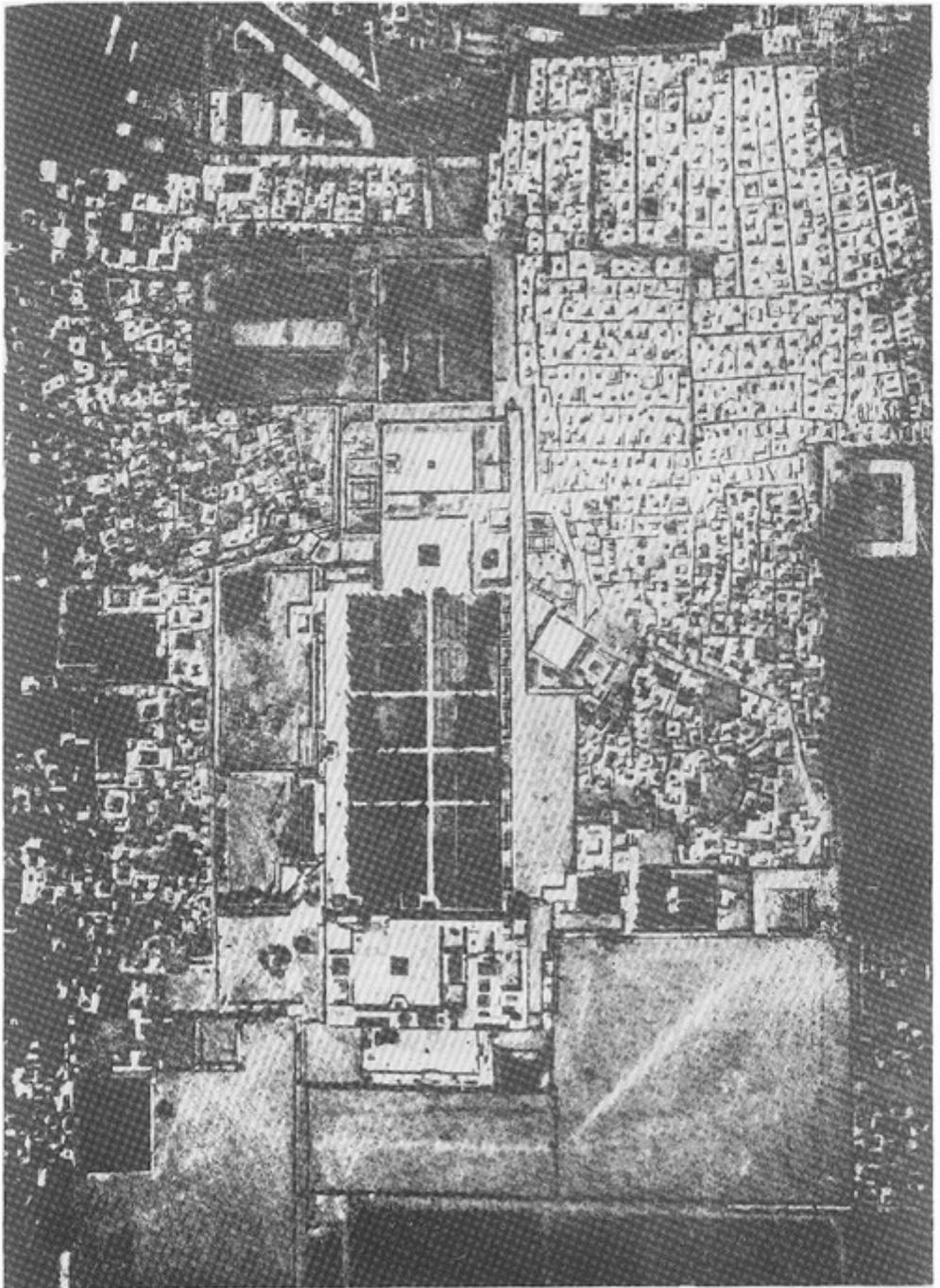
وخلافا لما كان يكتبه بعض المفرضين الاجانب عن دولة العلويين التي تولت الحكم فى أعقاب السعديين من أنها كانت تشعر بقشعريرة غيرة وهي ترى عظمة قصر البديع وان السلطان المولى اسماعيل لم يهدأ له بال الا عندما هدم تلك المباني وتخلص من ذكرها ، خلافا لذلك نرى أن العلويين لم يكن لهم مركب اطلاقا ازاء منشآت السعديين ، وهكذا فالبرغم من انتقاد المولى محمد بن الشريف أول ملوك الدولة العلوية لسلوك المنصور السعدي (21) نجد السلطان المولى الرشيد يقيم سنة 1079 = 1668 بنفس قصر البديع عندما دخل مراكش مطاردا للشبانات عنها ، بعد الايام العصبية التي عرفتها العاصمة . . بل ان المولى الرشيد استشهد وهو يروض المسرة فى عام 1082 = 1671 على ما هو معروف فى التاريخ ، ونرى السلطان المولى اسماعيل من بعده استقبل فيه البعثات الدبلوماسية بل ونسمع من بعد أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل كان له ولوع زائد بتتبع اخبار المنصور الذهبي . . .

21) انتقد المولى محمد المنصور فى احدى رسائله اهماله الوجود التركي شرقي المغرب واهتمامه بالاتراك فى جنوب افريقيا عوض الجزائر .

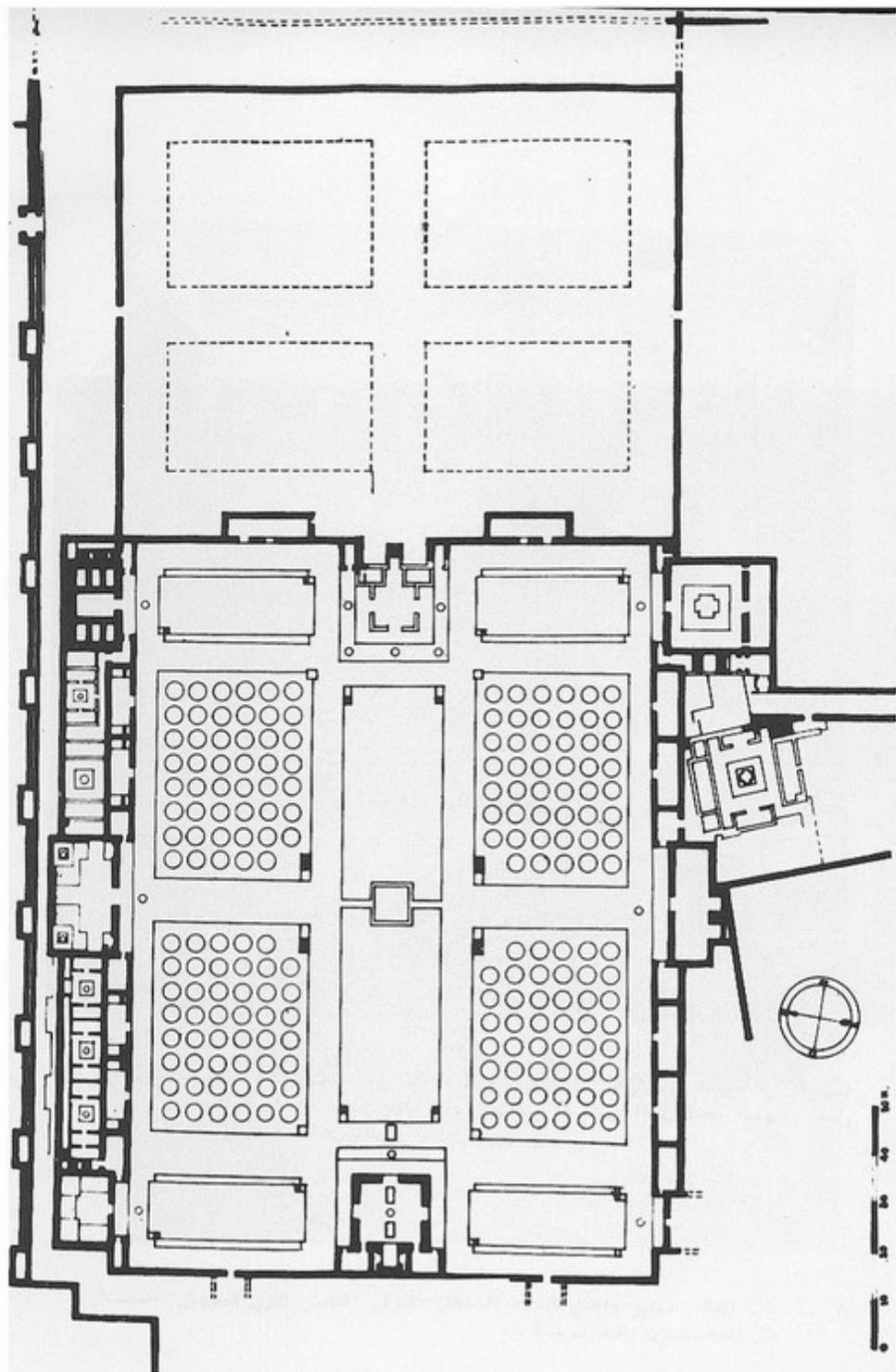
صور و تصاميم قصر البسج



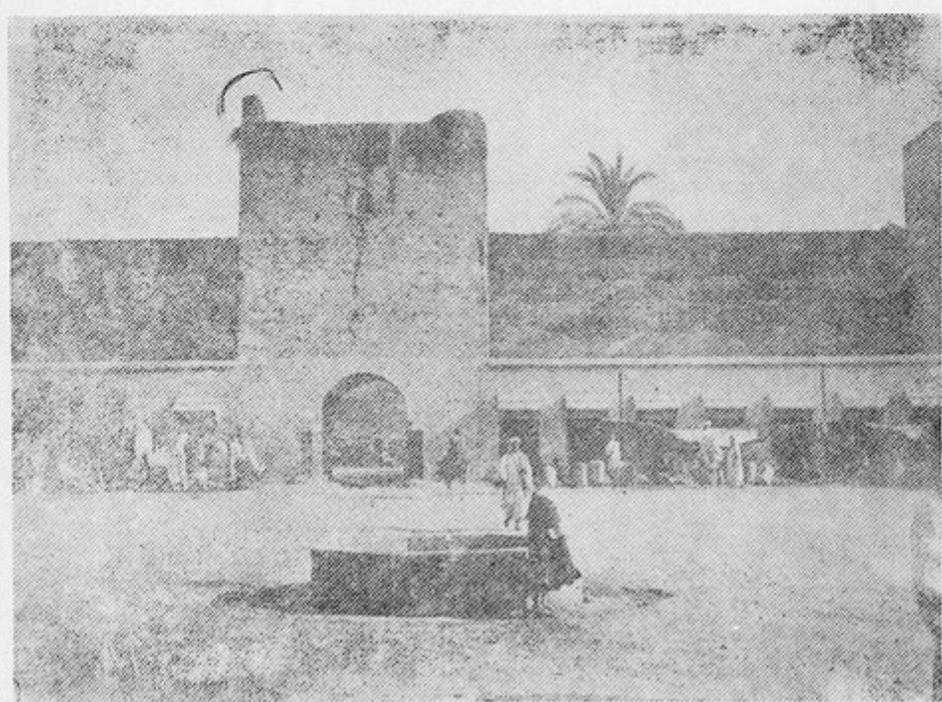
1 - التصميم البرفالي للقبة السعدية عام 1585



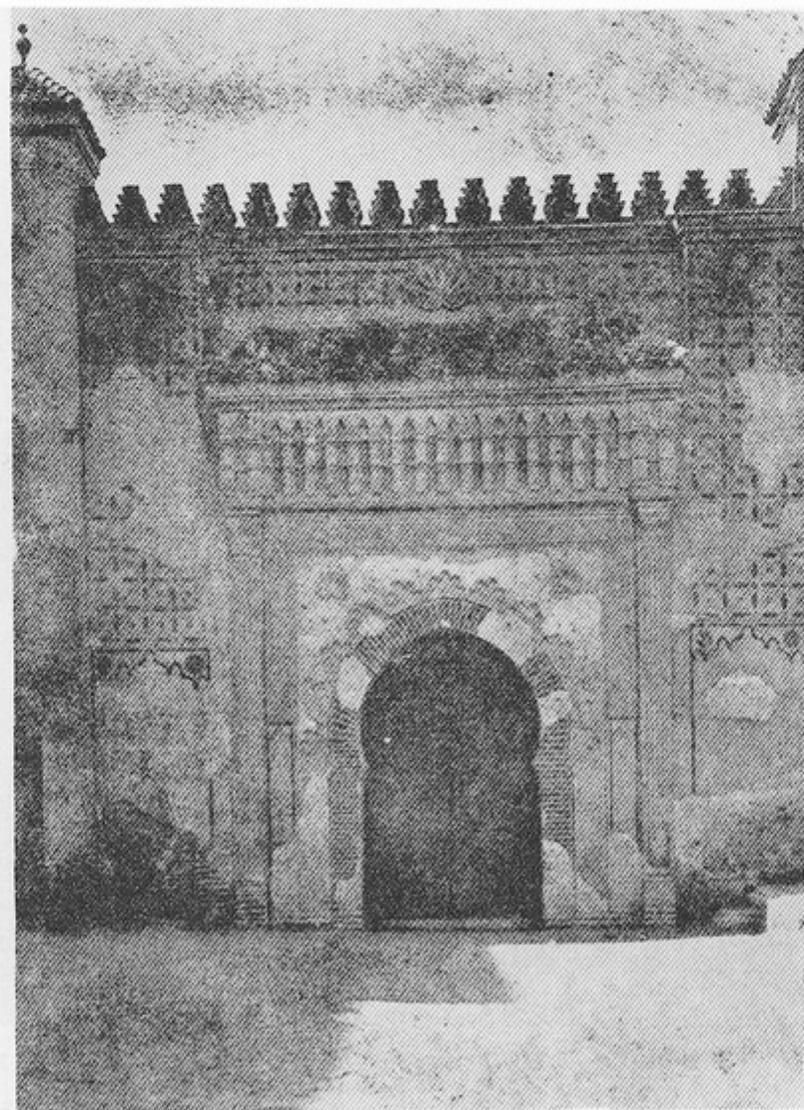
3 - قصبة مراكش ولاحظ في أعلى الصورة قصر البديع وفي وسطها حدائق القصر الملكي



4 - تصميم البدع الذي وضعته عام 1955 مفتشية المباني التاريخية أثناء التنقيب
(راجع النص)



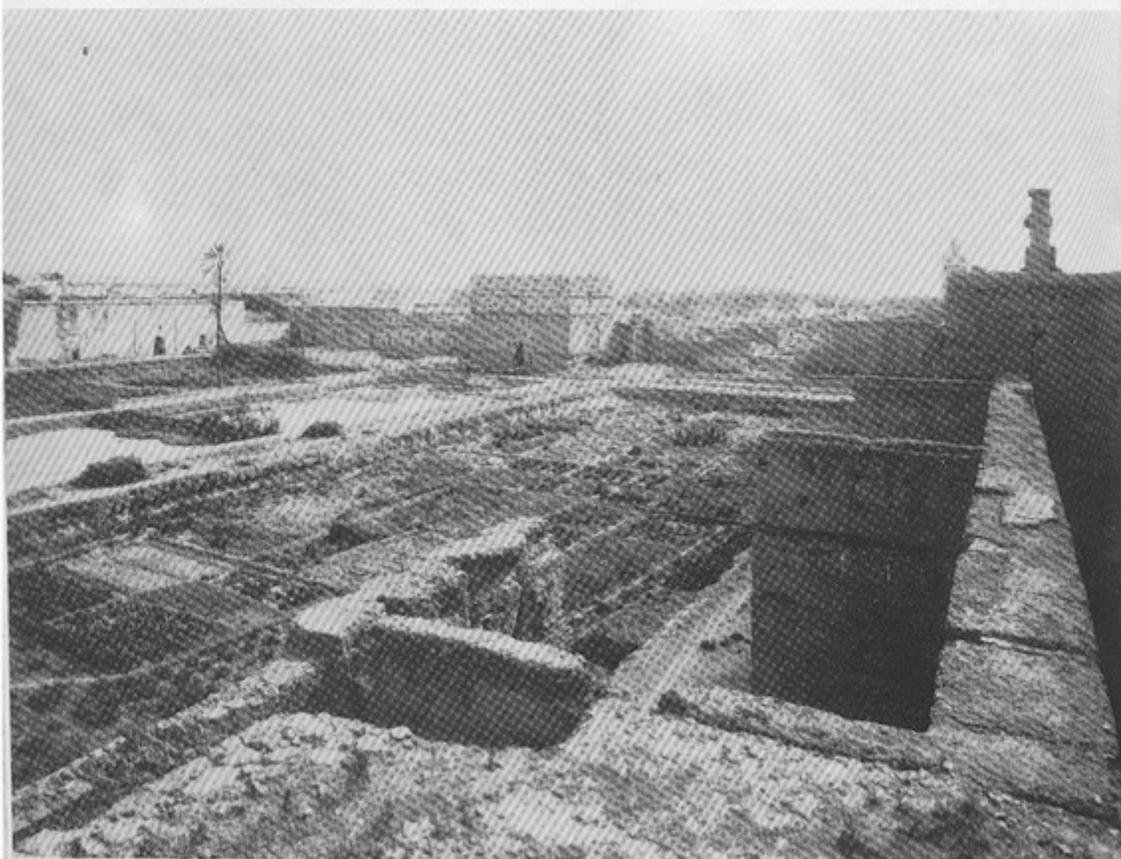
5 - باب بريمة الذي يفتح على ساحة الصفارين ، التي تقع حارة اليهود عن يمينها ويسارها ، والباب يرجع فقط لمهد المنصور السعدي الذي فتحه لتسهيل نقل المواد البنائية لداخل القصر ...



6 - باب القائد شكير والذي انشاه السلطان المولى الحسن الاول لتسهيل اتصال دار المخزن بالمدينة



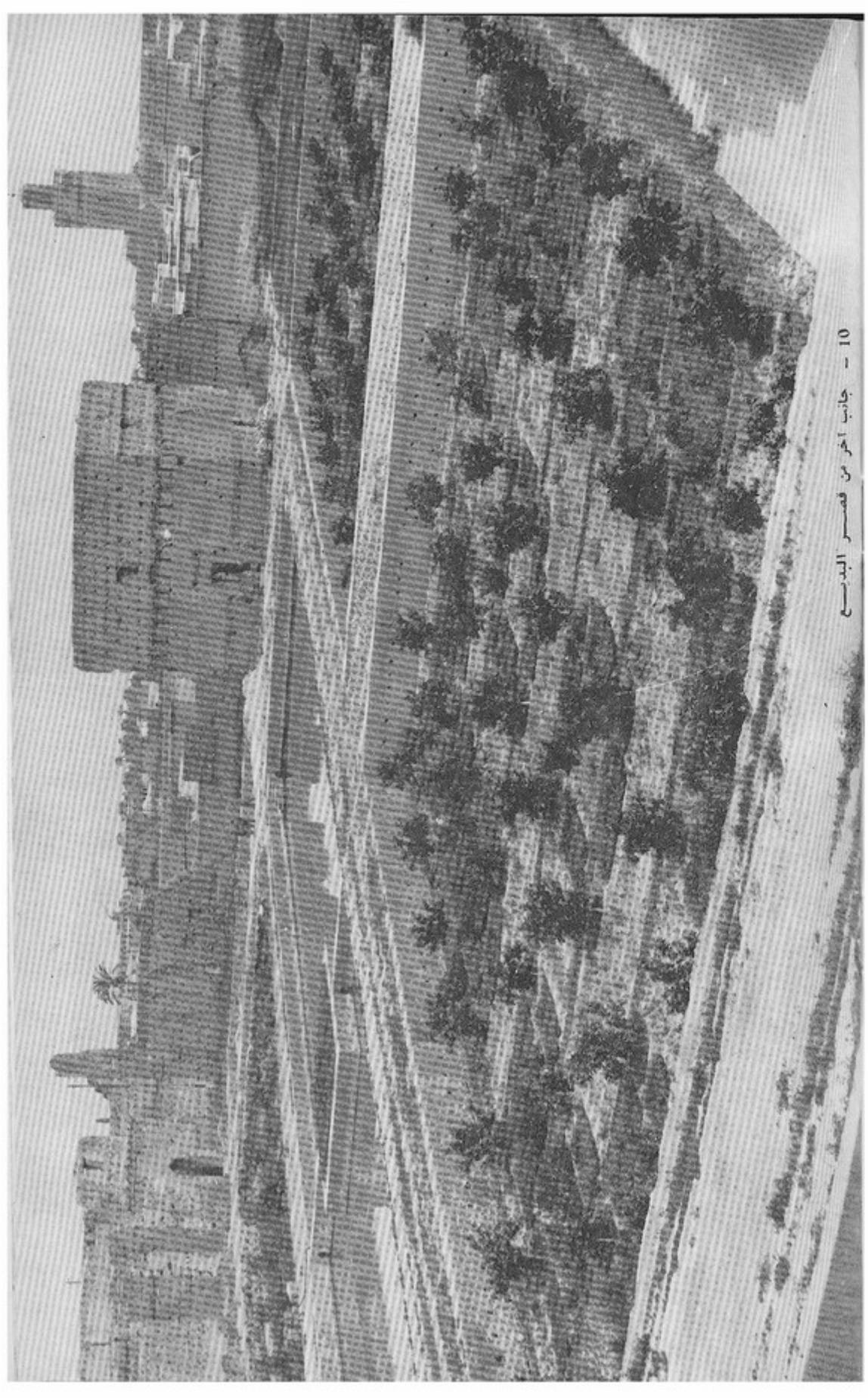
7 - البرج الذي كان بجانب الكنيسة من لوحة يرجع تاريخها لعام 1803 أنبتها علي باي
(قارن مع لوحة الذريان مائام)



8 - جانب من اطلال قصر البديع ويلاحظ انخفاض ارضية الحدائق عن مستوى البرك



9 - جناح بارز من قصر البديع





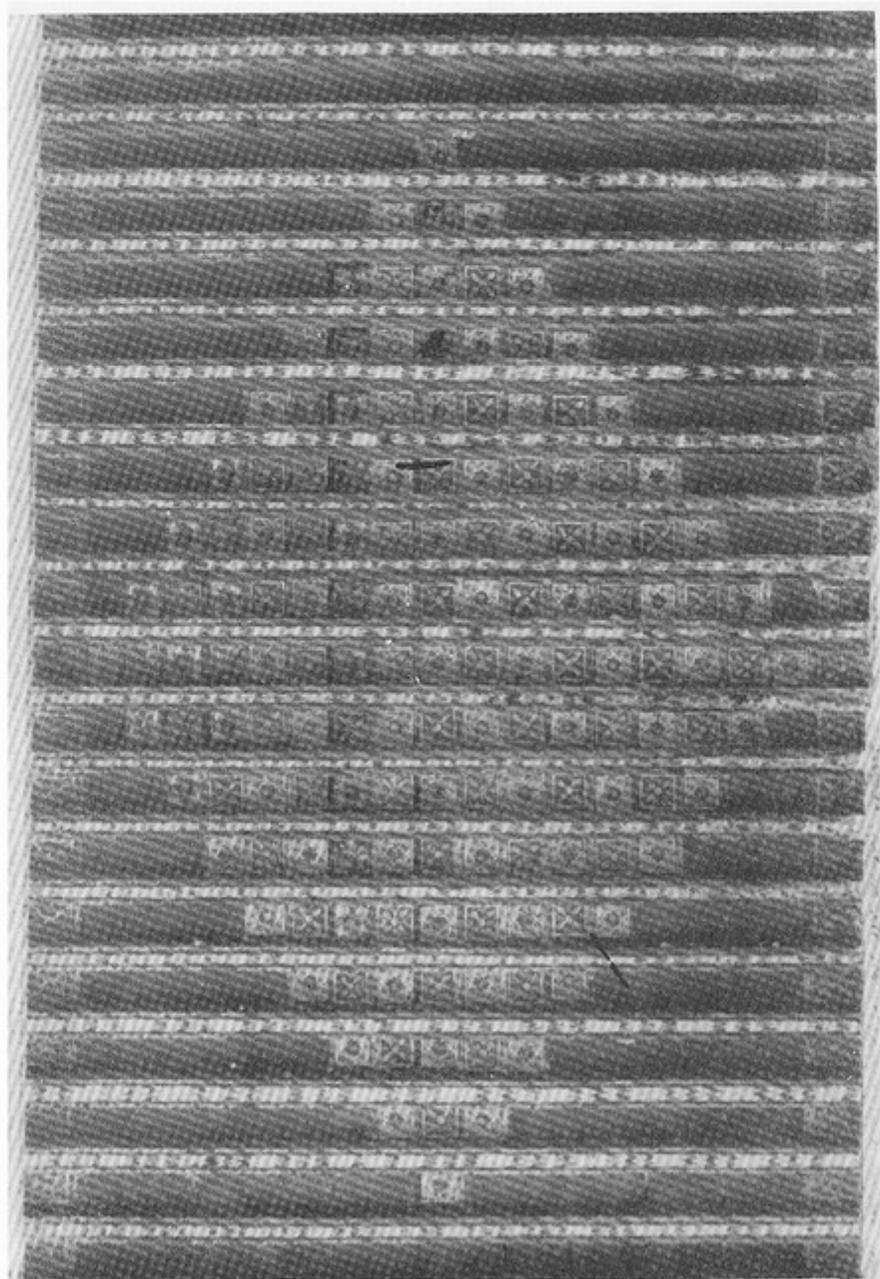
11 - جانب واحد جدران القصر

12 - جوانب من الصهاريج المنبتة في القصر





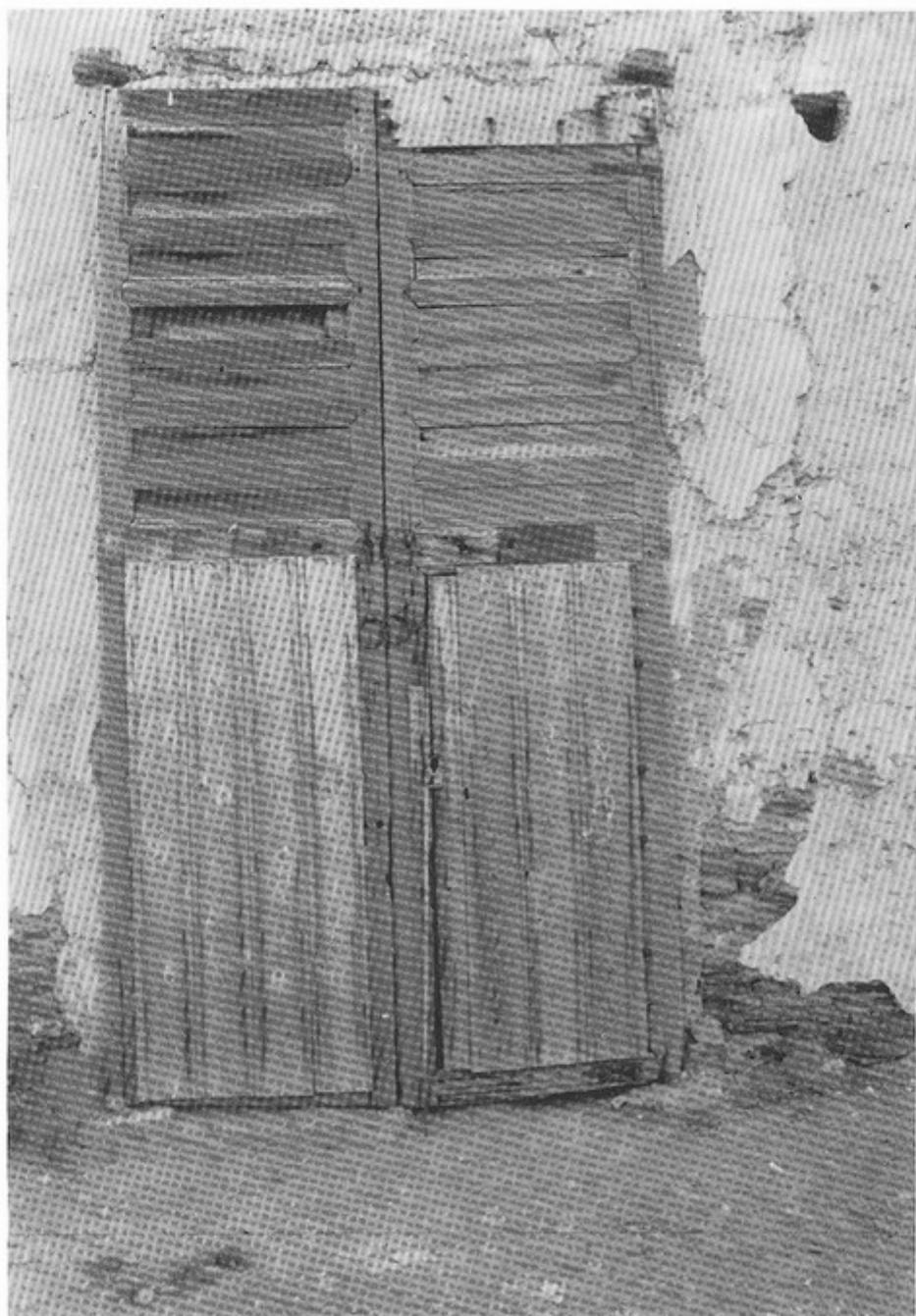
13 - بقايا من بعض الجهات التي كانت تتوفر على الدرج



14 - جانب من بعض سقوف الغرف في قصر البديع



15 - احد ابواب غرفة من غرف القصر



16 - ما بقي من مصراعي باب من ابواب البديع

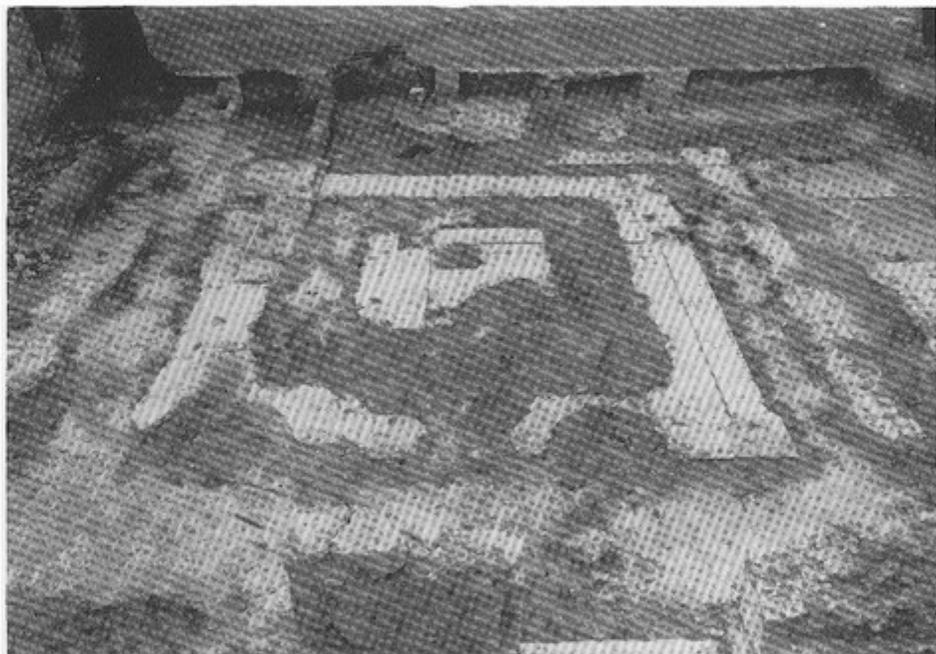




18 - بعض الاسوار المتبقية من القصر

19 - جوانب اخرى من القصر

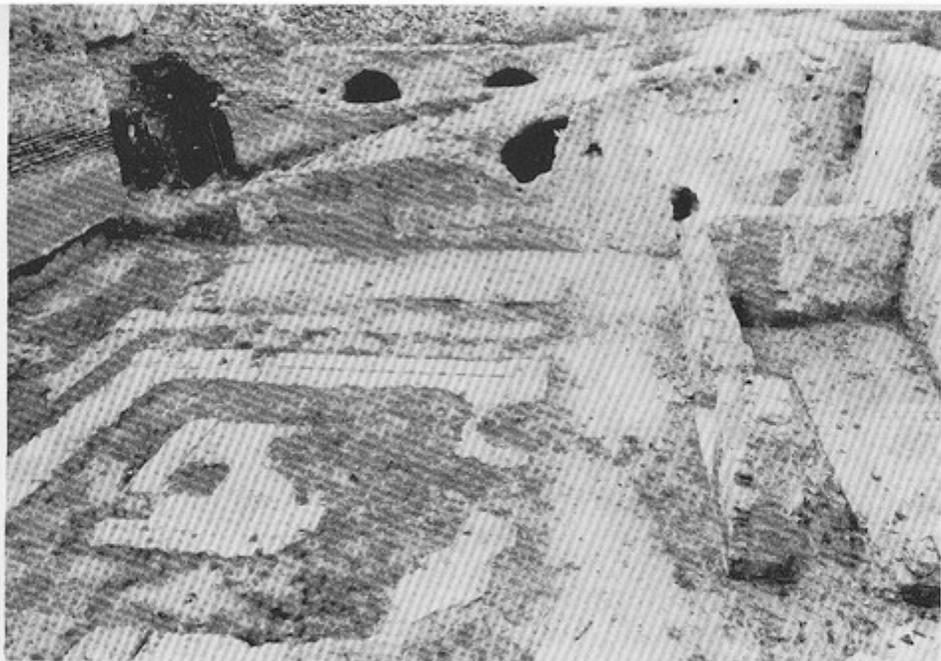




20 - آثار بقية من السيفساء

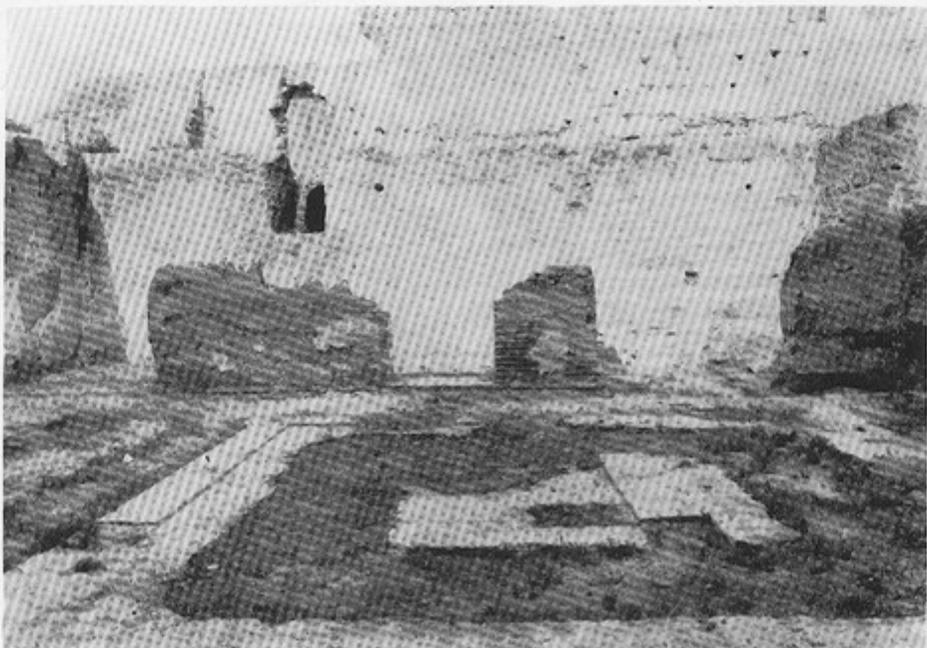
21 - بعض اثار البرك بما يجاورها من حدائق

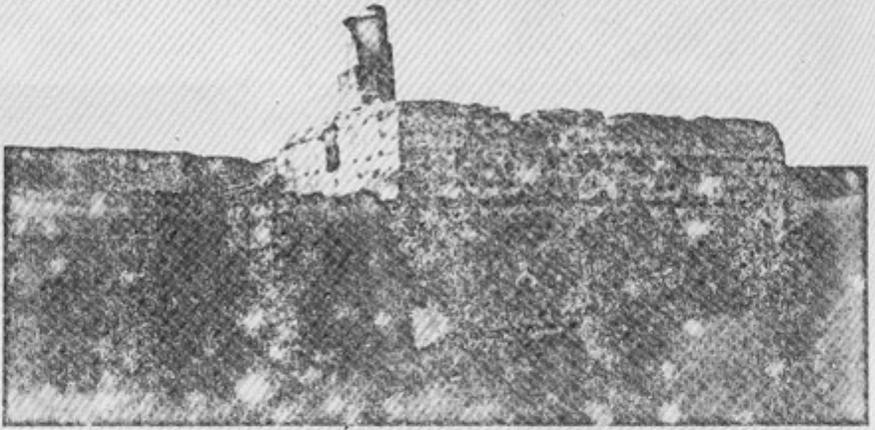




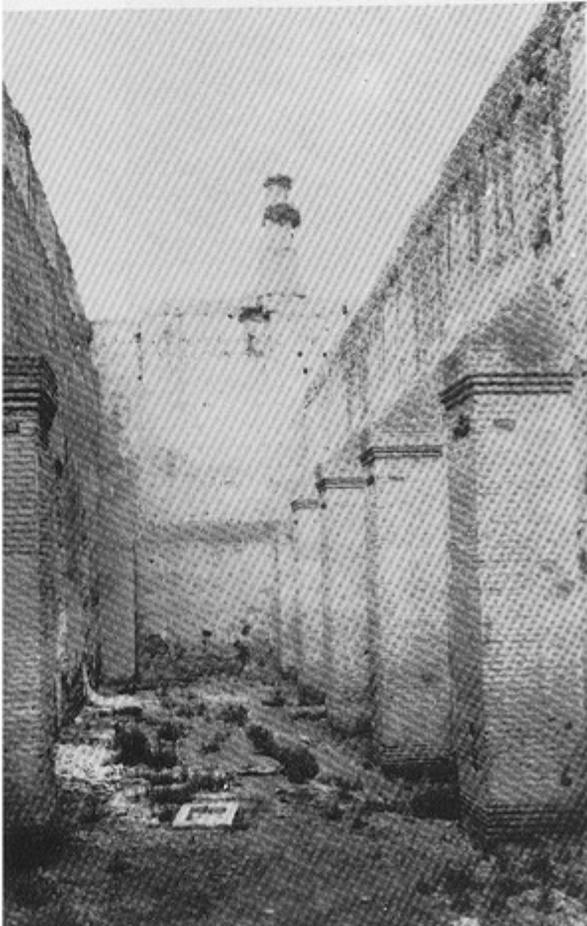
22 - أحد الأقبية التابعة لمرفق من المرافق

23 - جوانب فناء لحد الأجنحة بالقصر



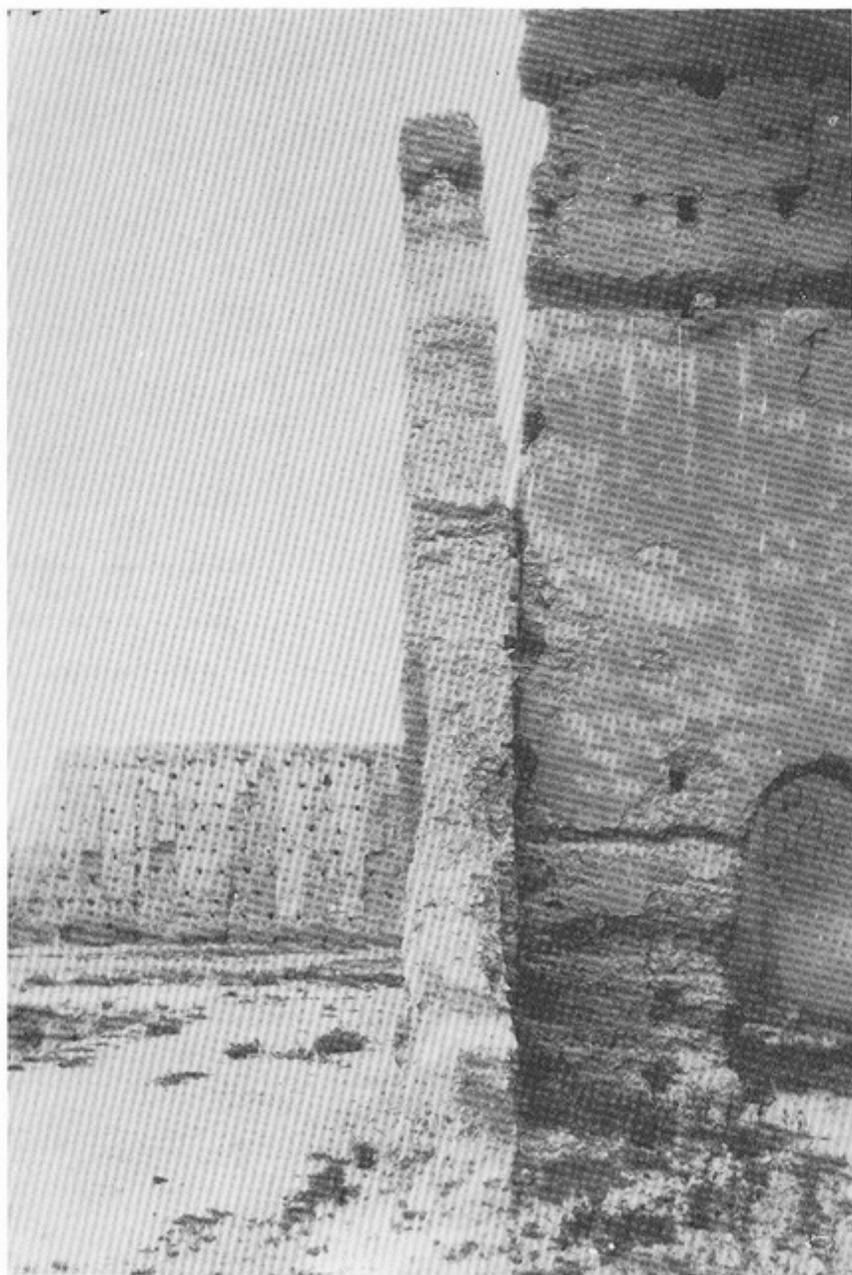


24 - جدار غرفة القصر وفيه أثر مدخنة
من مداخل المعامل النقدية وكانت
هناك عام 1400 مطرفة لضرب الديناريو



25 - جانب من القصر

يحاذي معامل النقد



26 - أحد المسالك والسراريب التي كان يتوفر عليها القصر



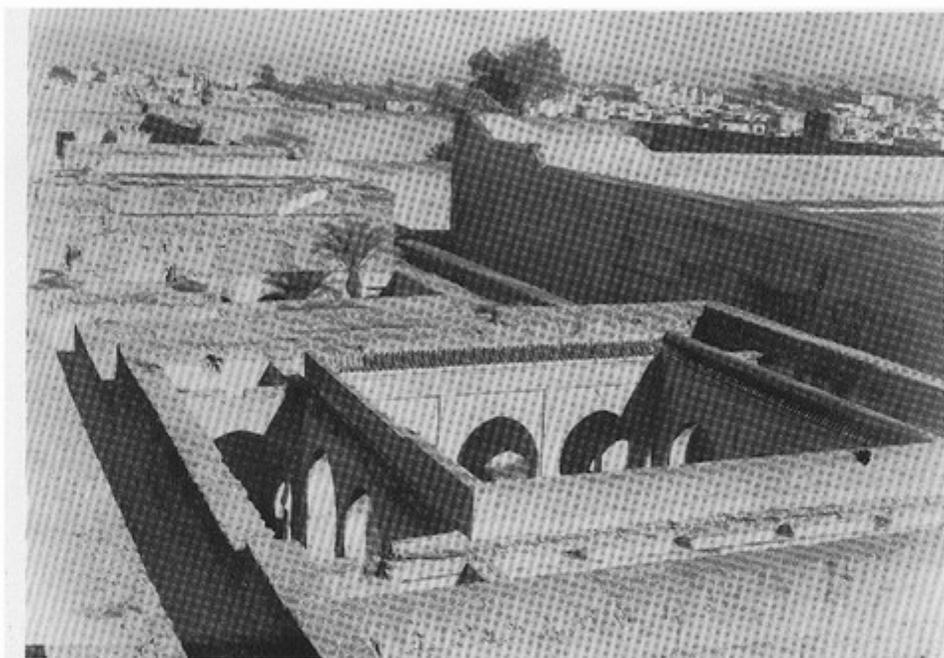
27 - بعض ما تبقى من مرافق القصر



28 - بعض ممرات القصر ويرى اثر المدخنة

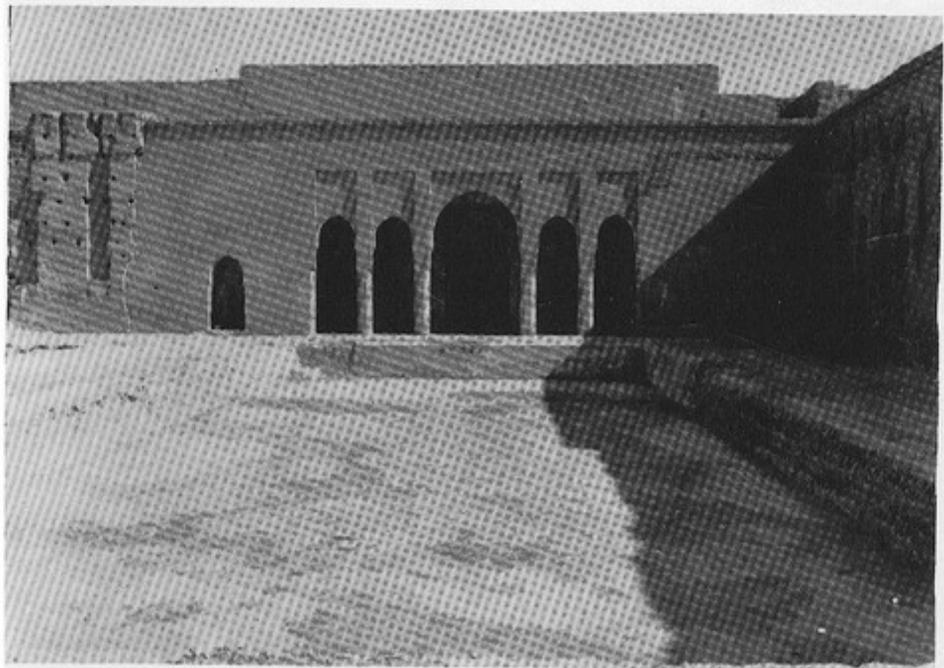


29 - بعض نوافذ القصر الحديدية



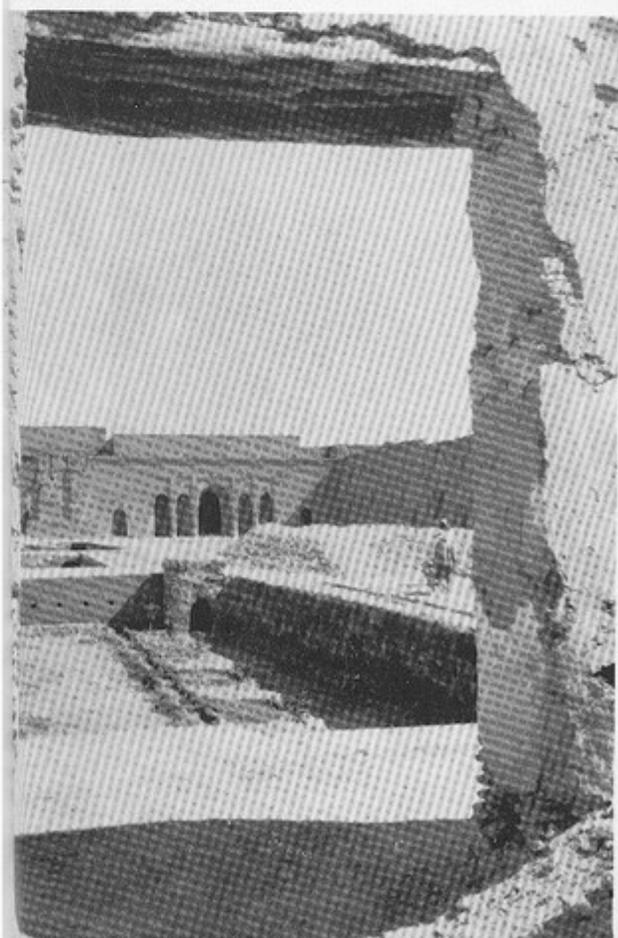
30 - إحدى الجهات المرممة من القصر

31 - بعض المرممات ويرى الصهيرج الموالي للقبّة

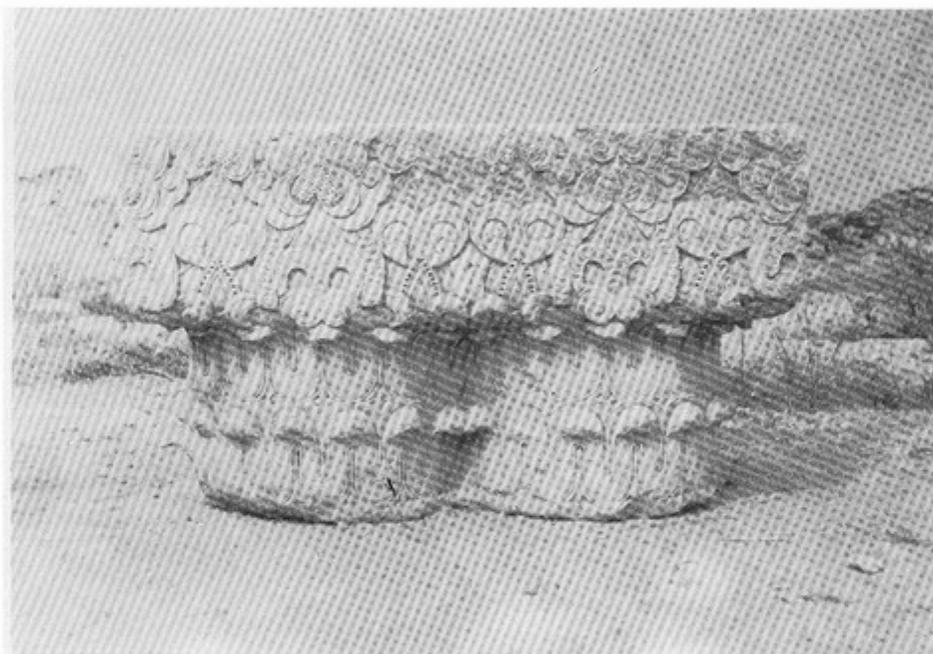




32 - جوانب مرممة من القصر

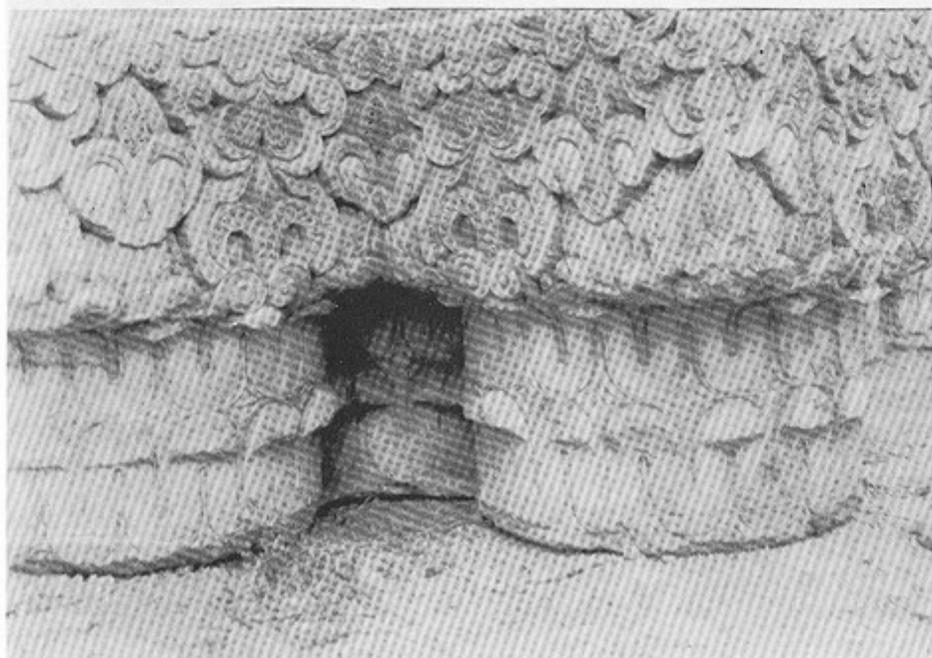


33 - زاوية تقوم على أعمدة الرخام



34 - عمودان متعاقبان

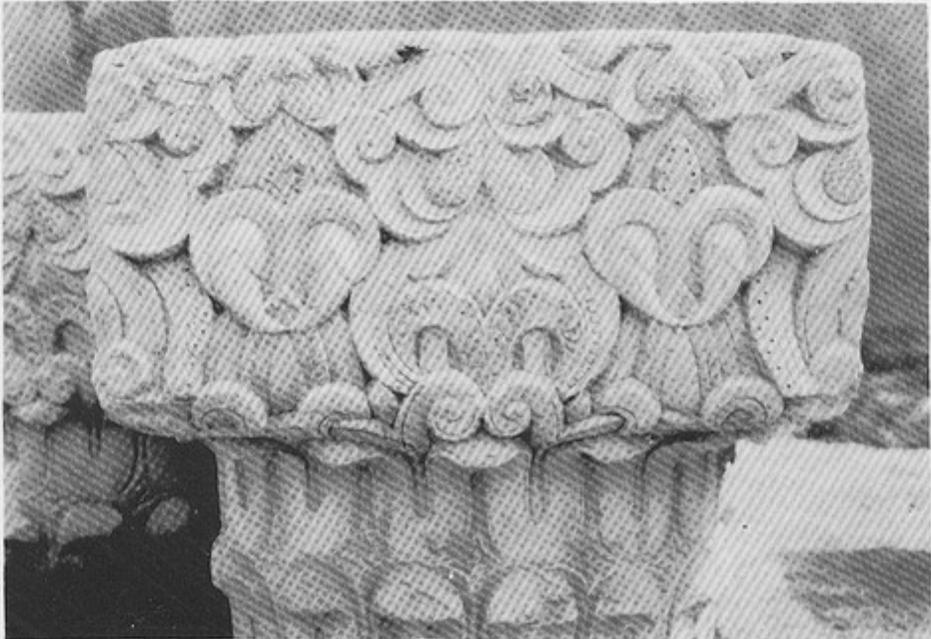
35 - شكل آخر من السواري

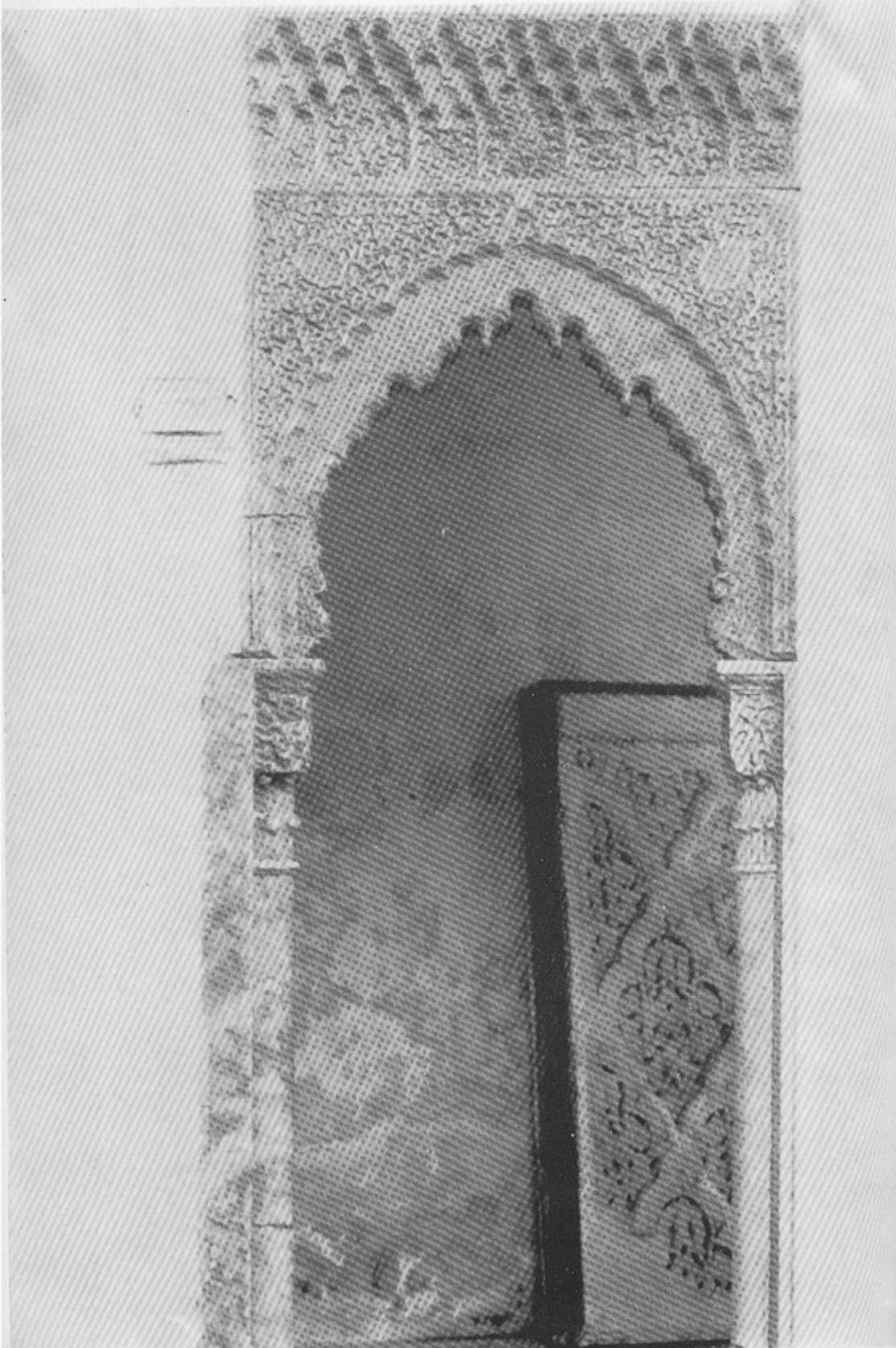


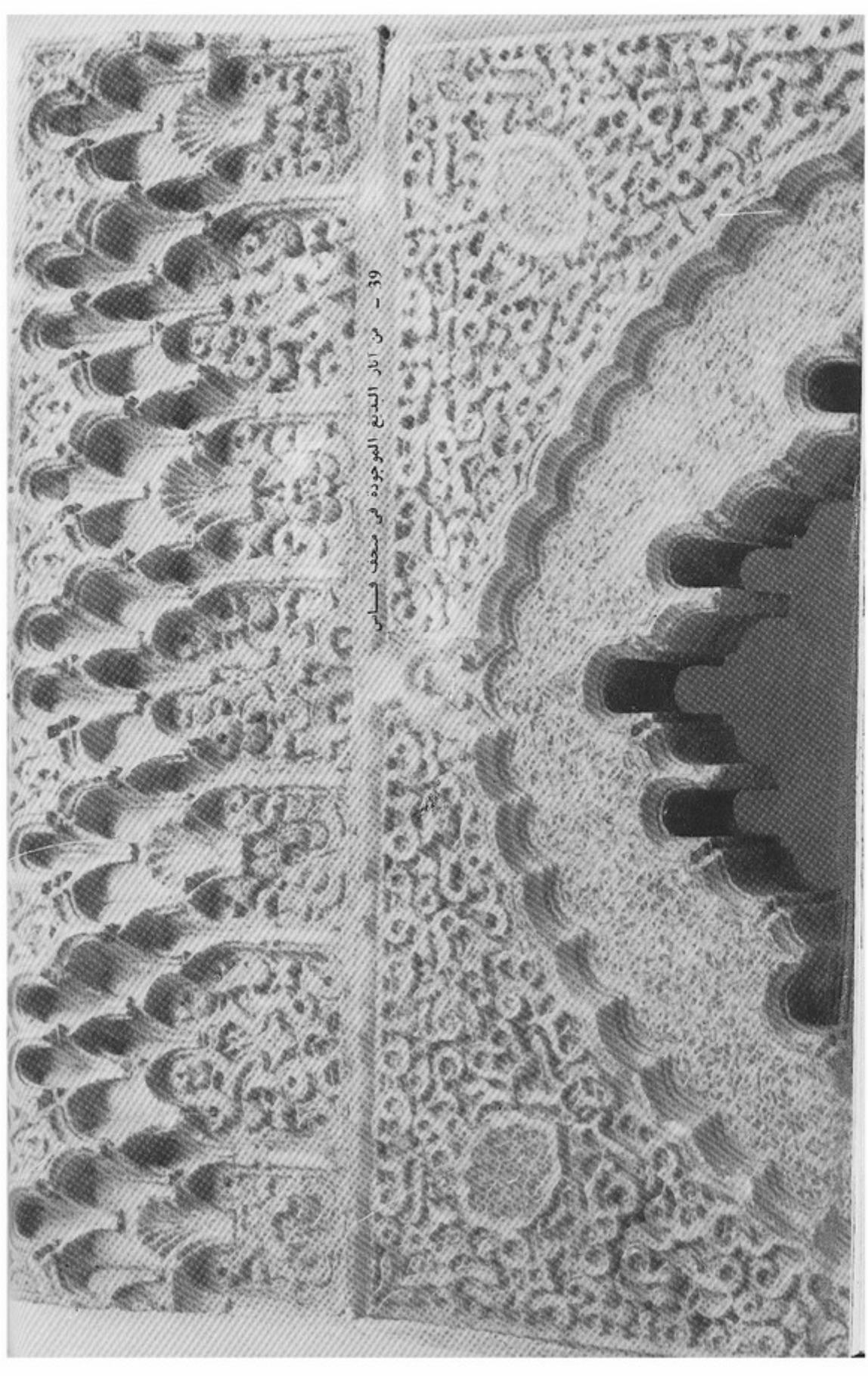


36 - فاصل رخامی

37 - تیجان من المرمیر









40 - معالم من قصر البديع

وكان كل تلك الاصطدامات من أجل مراكش لم تكن كافية ، وهكذا فعلى اثر مبايعة المولى اسماعيل مكان اخيه المولى الرشيد تناهسي الى العاهل ان ابن اخيه الامير أحمد بن محرز نهض للاستيلاء على مراكش العاصمة اواخر عام 1082 = نونبر 1672 .

ولقد عانى العاهل مولاي اسماعيل من تمرد ابن محرز وسجل التاريخ عن اشتباكات مسلحة عنيفة كانت تقع فى كثير من الاحيان داخل قصر البديع نفسه حيث ظل القصر فى نظر الراي العام رمزا للسلطة : من تحكم فيه كانت له الكلمة ومن اخفق فى احتلاله افلت السيطرة من يده . لقد قمع السلطان اسماعيل الحركة الاولى لكن ابن محرز تمكن من الفرار عن مراكش ليعود اليها عام 1085 = 1674 بعد ان تأكد عودة السلطان المولى اسماعيل الى مكناس واشتغاله ببناء قصوره هناك .

وهنا كانت الحركة الثانية من العاهل فى اتجاه مراكش حيث جرت معارك مدمرة امتدت ايضا الى داخل قصر البديع الذي تحول الى ساحة قتال تحوات مصاريع قبابها الى مجنات وتروس ، وغرفها الى تكنسات واروقتها الى خنادق ورياضها الى مقابر وصهاريجها الى مستنقعات للبعوض والناموس .

وقد كان (حيدة) قائد عصاية التمرد احد القتلى فى هذه المعارك بينما نجح ابن محرز فى الفرار من القصر عبر السرايب والدرج واتجه نحو جنوب العاصمة ...

ومن المهم أن نسجل هنا حديثا للسلطان المولى اسماعيل يفيض أسى وحسرة على ما تعرض له قصر البديع من تلف فى أعقاب هذه الحروب التي غذبت من خارج المغرب وبالذات من أتراك الجزائر .

عندما استقبل العاهل السفارة البرتغالية التي وردت عليه وأخبر جمادى الثانية 1088 = أواخر غشت 1677 برئاسة أنطوان دي سيلفا (De Silva) التمس منه السفير أن يقف على القصور الملكية « نظراً للصيت الذي كان لها » - فماذا كان جواب السلطان الذي كان يفكر منذ

البداية - في استقبال السفير بخيمته الخضراء تلافيا للاستقبال في القصر المتداعي .

لقد قال للسفير : « سترضى مطالبك ولو أنك سوف لا تجد في هذا القصر ما كنت تسمع عنه ، سترى كثيرا من الدمار لان رصاص المعارك المحترمة كان يلعلع في هذه الساحة ، ولأجل ذلك فانك ستشعر بالخيبة وأنت ترى اثر التشتت والتمزق (22) » .

وقبل أن تفادر البعثة مدينة مراكش شاهدت المناورات العسكرية بحقائق المسرة برئاسة السلطان المولى اسماعيل ، وعندما قام السفير بتوديع السلطان أعرب له هذا الأخير عن اعتذاره باستقباله في غير عاصمته التي كانت ، منذ هذا التاريخ تتوفر على عدد من القصور والرياض والقباب المرتبة والمجهزة أحسن تجهيز بما تحدثت عنه المصادر المغربية والاجنبية على السواء .

+ × +

لقد كان السلطان المولى اسماعيل يظن بعد هذه العمليات أن أمر ابن محرز قد انتهى سيما بعد عقد صلح مع أتراك الجزائر إلا أن الاخبار الواردة من رعاياه بسوس كشفت عن تجدد قيام ابن محرز عام 1092 = 1681 بل وفضحت بالاضافة الى هذا - وهذا ما اغضب السلطان أشد الغضب - أن أتراك الجزائر يقدمون العون لابن محرز حيث ضبطلت بعثات متبادلة بين الجهتين ومراسلات منتظمة انتهت الى عقد حلف تمون تركيا بمقتضاه عملاءها بالسلاح والجنود ... !

وقد أسندت كل هذه الاخبار بتقرير من خليفة السلطان بمراكش ، رفعه الى المولى اسماعيل الذي زود خليفته المذكور بتعليمات تستهدف

(22)

une ambassade Portugaise à la cour de Marrakech au XVIIe Siecle
FRANCE MAROC Dec. 1924 N° 97

تطمينه والتوصية بالصمود ريثما يعود من حملة شرق المغرب حيث فتح
الأتراك واجهة ثانية ضده فى بني يزناسن ؟

ان الشعار الذي رفعته دولة العلوية هو الاستقلال وعدم
التبعية لاي كان بما فى ذلك تركيا وبهذا نفسر قلق أتراك الجزائر من ظهور
العلويين وعملهم باستمرار على خلق المشاكل لهم بدعوى أنهم يخافون على
وجودهم بالجزائر من هؤلاء الشرفاء الجدد الذين كانوا - فى هذا الصدد -
على خلاف السعديين المتعاونين أحيانا مع الأتراك .

وهكذا فمن رد الصاع صاعين بالشرق قصد المولى اسماعيل سنة
1094 = 1683 مدينة مراكش حيث شاهد ما آل اليه (قصر البديع) من
خراب ودمار ... قبل ان يتجه نحو السوس ليدخل فى حروب ساخنة
مع العصابة حيث جرح ابن محرز ، أواسط جمادى الثانية 1094 = يونيه
1683 ، فالتمس الصفح من عمه الذي أشفق على ابن أخيه ...

لكن ابن محرز عاد بعد سنتين للتمرد وبتحريض أيضا من أتراك
الجزائر أنصاره السابقين الذين ظللوا كذلك أخاه الحران ، وهكذا نجد
المولى اسماعيل يناهض بعنف هؤلاء المتربصين ويجهز على ابن محرز
أواسط ذي القعدة 1096 = اكتوبر 1685 .

فهل انتهت مطامع المتربصين ؟ لقد تعرض شرق المغرب لاعتداء
جديد وكانت للجيش المغربي هناك جولة أخرى بقيادة المولى عبد المالك
انتهت بتجديد الهدنة سنة 1103 = 1692 لتخرق من جديد ويعود المولى
اسماعيل لتأديب المتربصين بقسوة ، الامر الذي استدعى ارسال بعثة من
اصطامبول سنة 1108 = 1697 تحمل كتاب السلطان مصطفى الذي
يلتمس من العاهل الصفح عن نوابه بالجزائر ...

وقد أرضى السلطان اسماعيل طلب السلطان مصطفى ولكن الاطماع
تجددت سنة 1112 = 1701 لما أن الأتراك لم يهضموا تصلب المغرب فى
التمسك بالحفاظ على حدوده ، ورفض تبغيته لاي كان !

وفى خضم هذا العراك ... تستهدف مراكش - وفى صدرها قصر
البديع - لمطامع جديدة ليست ببعيدة - على ما يبدو - عن مناوشات
أتراك الشرق ، فقد طمح الامير الملقب بالعالم بن السلطان اسماعيل الى
السطو على العاصمة من ناحية سوس شأن ابن محرز بالامس وهكذا
زحف من الجنوب على العاصمة فحاصرها زهاء الشهرين رمضان ، شوال
1014 = يناير - يراير 1703 ، حيث عانت المدينة كثيرا من الاهوال
وهو الحادث الذي استدعى ارسال الامير زيان لتخليص مراكش التي
عاشت طيلة سنتين أيام محنة عارمة قضت على البقية الباقية من معالم
مراكش وخاصة (قصر البديع) الذي عاد اطلالا متداعية وهيكلنا نخرا
عملت فيه يد النهب وعبثت به معاول الاهمال والسطو الذي لا يرحم ،
فلقد اختلت دورات السقي وتعطلت جل الانابيب فيبست الحياض وذبلت
الرياض ، وساءت الصيانة وانتهت العناية واشتغل الناس بمصيرهم
وظروف معيشتهم ...

ولقد تأكد لدى العاهل - أن هذا القصر - أمسى عديم الجدوى فهو
خراب يباب ، وتعهده وتأهيله - على بعد عاصمة (مكناس) منه - أمر لا
مبرر له علاوة على أنه ما أنفك يفري بعض المتطوعين والمستشرقين ،
بمغامرات انتحارية تلحق بالسكان الضرر الكبير فى الوقت الذي كان اهتمام
السلطان المولى اسماعيل يتوجه بصفة ملحة الى تحرير ما تبقى من
الثغور المحتلة .

لقد عرف فى تقاليد الوطنية المفريية انها - حفاظا على البلاد
ووحدتها - تقدم أحيانا على التضحية بمدينة بكاملها اذا كان ذلك يرضي
الفيرة والشهامة القومية ... ألم نسمع عن اجهاز المغاربة على ثغر
(غساسة) فى الشمال وقد أدركوا أن المستعمر يهدده ؟ ألم نسمع عن
تخريبهم لصانطا كروز فى الجنوب وقد تشوفت اليها الاطماع ؟ وان المولى
اسماعيل هو الذي كان يهدد بنسف مدينة سبتة ومحوها من الخريطة اذا
لم ترجع لاصحابها الشرعيين ...

أضف الى كل هذا جانبا أكثر أهمية وأبرز خطورة فقد أمسى القصر
منطقة موبوءة فتاكة تضرب كل ساكن فيها بأنواع الحمى النافض التي

تعصف بالارواح وتؤدي بالاجسام « لا يسكن احد بها - كما يقول ابن الحاج - او بدار متصلة بها أو بقصر من قصورها أو حتى تحرك بناحيها أو اقترب بسور من أسوارها الا اصابته الحمى واعتريته الامراض وانتابته كل الآلام حتى أمسى المولى اسماعيل لا يكتفيها الا بدار أم ملدم « اي الحمى ، وما سكنها احد من اولاده الا اصابته شتى أنواع الاصابات التي تنتقل بسرعة الى باقي اطراف المدينة وخاف السكان على أنفسهم وأهلهم ، وهكذا وبدافع اولا من حفاظ على الصحة العمومية التي تأتي في مقدمة اهتمامات الدول المتحضرة اليوم ، قرر المولى اسماعيل تهديم ما بقي من مباني البديع وطمس ما صمد من معالمه وملاحه محاسنه فصار كان لم يكن شيئا مذكورا ، وأمسى نظمه منثورا وأصبح مرعى للمواشي والسدواب ووكرا للقتل ومقرا لليوم معدودا في جملة الخراب (23) .

انه بكل ذلك نفسر ما أجمله اليفرنى عند تعليل أمر المولى اسماعيل القاضي بهدم بقايا القصر سنة 1119 هـ - 1707 م حيث قال كان ذلك « لموجب يطول شرحه » .

وليس صحيحا ما نقله المؤرخ الرباطي الضعيف أن المولى اسماعيل لما هدم البديع حول مواده لتشييد داره بمكناس فقد بنيت تلك القصور - على ما أسلفنا - قبل بربع قرن تقريبا وهي القصور التي قال عنها المؤرخون : « ان قصر البديع لا يضاهاي واحدا من قصورها وان روض المسرة لا يوازي بستانا من أحد بساتينها (24) ... »

(23) يذكر ابن الحاج صاحب الدر المنتخب ان بعض الناس بالرغم من الباعث الذي دفع الى الاستغناء عن تلك الاطلال توجه بالعتاب لصنيع العاهل ، لكن بعضا آخر كانوا يرون راي المولى اسماعيل ، وهكذا قال بعض الكتاب معتذرا عن هدفه مذكرا بناحيصة أخرى بعيدة المرمى :

ما هد اسماعيل شمس السورى * من البديع الرائقات القباب
وانما هدها من بنسى * بالحجر المفصوب معه التراب
أما سمتم قول من مسمى * الحجر المفصوب أس الخراب!!

(24) الاستقصا : 7 ، 48 ، 54 - 102 .

وإذا كنا لا نستبعد امر المولى اسماعيل بنقل بعض السواري من مراكش الى مكناس اثناء حلوله بالبديع ومعاينته للتلف الذي حل بالقصر مما اشرنا اليه آنفا فاننا نرفض - وتعضدنا الوثائق - ان يكون بناء قصوره بمكناس كان يتوقف على تصفية قصر البديع اى ان يكون المولى اسماعيل انتظر سبعا وثلاثين سنة لتكون له قصور !! ودون ان يلتفت الى اطلال مدينة شالا التي تحدثت عنها رسائل السفير ولد عائشة الى الوزيرين الفرنسيين : بونتشارطران (Pontchar Train) وموربا (Maurepas) تحدثت عن نقلها الى مكناس بتاريخ 30 ربيع الاول 1111 = 25 شتنبر 1699 (25) بل وخرائب قصر فرعون ، (volubilis) الذي يوجد على مقربة منه ، وحتى بعد امره بهدم القصر نلاحظ ان المواد المنقولة كانت من القلة بحيث استطاعت التقارير الدبلوماسية الاجنبية ان تتبعها وتضبط تاريخها مما لا يدع مجالا للشك بأن الذين عاثوا فى قصر البديع سطوا ونهبوا وتوزيعها قوم لم تعرف هويتهم وأنهم على الراجح ، ممن يستغلون ظروف الاضطراب والفتن ، على ان بعض المواد ضبط استعمالها فى بعض المزارات المنشأة بعد عمليات الهدم ...

وهكذا نقرأ فى رواية للفنصل الفرنسي بيريلي (Périllié) بتاريخ 15 يولييه 1684 . عن « حمل اثنتى عشرة سارية رخام من أسفي على بعض المراكب ، كما نقرأ بتاريخ 22 نونبر 1695 عن قيام الفنصل الفرنسي بيير ايسطيل (Estelle) بالتفرج فى سلا على عربات تجرها الثيران محملة بالرخام القادم من مراكش ...

ان هذا كله يؤكد ان الاعراض عن البديع لم يكن ناشئا عن شعور بالحقق والغيرة ممن كانوا على كرسي الحكم والا فكيف نفسر المقام فى البديع واستقبال السفراء فيه كما يؤكد ان بناء القصور بمكناس لم يكن متوقفا على ما يلتقط من البديع ، واطافة الى هذا وذاك فان القصر استهدف - كما فصلناه - منذ وفاة المنصور السعدي لهزات ورجات وظروف وصروف جعلته بعد زهاء القرن عبئا على الدولة محكوما عليه

(25) دوکاستري س : 2 ، م 5 ، ص 406 .

بعدم الفائدة . . . وهكذا فان المولى اسماعيل بعيد عن ان يتحمل مسؤولية مبنى عملت الاحداث الداخلية والخارجية على انهياره والحاق الضرر به وجعله هيكلا خاليا من الروح بل وصيرورته منطقة وباء ماحق فى وقت لم تكن فيه وسائل التعقيم والتطهير الصحي متوفرة .

ولعل مما يضيفي الضوء على ما أسلفناه من التبعة الملقاة على كاهل « الذين » كانوا يوالون سطوهم على مواد القصر دون علم السلطنة ، ان اوائك تجاوزوا البديع الى سائر اطراف القصبة حتى وجدنا ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل يضطر لنصب الخيام فى القصبة للمقام بها اثناء زيارته الاولى لعاصمة الجنوب !!

ومع ان ما حاق بالقصر من أهوال اتى على جل معالمه ومع ان سائر ما فيه تعطل فان كل ذلك لم يستطع ان ينتزع من تلك الجدران القائمة ، ومن تلك الصهاريج الكالحة ، ومن تلك الساحات الشاحبة ، لم يستطع ان ينال من عظمة المبنى بالرغم من الصمت الرهيب الذي يخيم على أركانه ودروبه .

وشعورا من الحكومة المغربية بذلك الماضي المجيد قامت مصلحة الآثار بتخطيط من وزارة الدولة للشؤون الثقافية ، وفى اطار التصميمات المعمارية بتخصيص مبالغ ضخمة لترميم بعض القاعات التي صمدت فى مباني البديع .

وهكذا يجري العمل على قدم وساق من اجل اعداد قاعة من القصر تضم سائر ما عشر عليه ويعشر عليه مما له صلة بالبديع من قطع رخامية او خشبية او خزفية او غير ذلك ، ثم كل ما يمس بمنشآت السعديين المعمارية حتى يكون الزائر لتلك القبة فكرة مدققة عن طموح الفن على ذلك العهد ومواكبته بل وتفوقه على الفنون المعاصرة ، كما ان الاستعدادات جارية فى الوقت نفسه لتهيء قبة ثانية تخصص جنباتها لعنصر ثان من مظاهر عظمة السعديين ، وهو العنصر المتعلق بمعاصر السكر التي اشتهرت بها (تارودانت) (المحمدية) القديمة ونواحيها على ذلك العهد ،

وان الذين يتتبعون تاريخ الممالك الأوروبية آنذاك وخاصة انجلترا يعرفون اصطلاح « دبلوماسية السكر » ! الذي دأبت التقارير على استعماله .

ستضم القاعة الثانية جل تلك الادوات والاحواض والقوالب المستعملة في تلك المصافي التي اكسبت المغرب ازدهارا ورخاء يترجم عنه وصف المنصور بكلمة الذهبي ...

على ان هناك جهة أخرى تعني بالتعريف بالبديع ، تلك هي وزارة السياحة التي تنظم في رحاب البديع مهرجانا ربيع كل سنة للفنون الشعبية تشاهده مختلف الدول من سائر جهات العالم ، ولا يهدف ذلك المهرجان فقط لتمضية الوقت والتسلية بقدر ما يهدف الى التعريف بضروب في الفن ، واشكال من التعبير كانت معروفة بالمغرب منذ القرون الماضية فهنا اوان من الرقص المعبر ، وهنا صور عن المناورات التي كانت تعد من أجل مقارعة المهاجرين والمغيرين ، وهناك ناخذ فكرة عن المدرسة المغربية التي تعد المرأة لتكون في ساعد الرجل ، وتعد الرجل ليكون درعا للوطن ...

+ × +

وبعد فلقد كان القصد من هذه السطور تجديد ألفاظ النظر الى تلك المعلمة التي شددت الناس على اختلاف مشاربهم الى جمالها وعظمتها ، والتي قضت عليها الحروب المتوالية تلك المعلمة التي نعتبر الحديث عنها والاهتمام بها والانصاف لها من باب البرور بالتاريخ الحضاري للمغرب .

د . عبد الهادي النازي

النص الكامل للقسم الخاص بقصر البديع من كتاب (مناهل الصفا) للمؤرخ الفشتالي :

« ... فمن شرف آثاره الجليلة الضخمة التي اخمل بها ، ايده الله تعالى ، ذكر مصانع قومه بني العباس ببغداد وبني مروان بالشام وآثار بني عبيد التي منها القاهرة ، وسائر ما يعزى الى اولى السلطان الاكبر من القياصرة والاكاسرة واهل الدول الاولى والآخره : قصره الشريف العظيم الخطر العديم الند والمثل . الضخم العمل ، الذي هو المثل المضروب في الارض عظمة وفخامة وضخامة وجلالة واحتفالا وتفننا وتأنقا ، ولا بد عند الاستفتاح بذكر هذا المصنع العظيم الشريف من مقدمة تكون هي النتيجة في اقامة المعذرة لي عما يستشعر من القصور من يقف على عين هذا الاثر الشريف الجليل المنيف فيرى ما ابصر اجل وأعظم وأفخر وأبهر واخطر وأرحب وأوسع وآثق وأرفع مما سمع ، فأقول ان الله تعالى لا يواخذ العبد الا بما يكون من العمل في وسعه وطاقته . والاحاطة بأوصاف هذا الاثر العظيم والآية الخارقة لا جرم من قبيل المحال والتكليف بما لا يطاق ، ولكنني اصف من الفلك بعضه واتقلد من العمل فرضه واتجنب البحر وخوضه فأقول :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فقل

فيا لله وللعجائب ، وللدنيا المضروبة في ارض المغارب ، والخوارق التي لم يخلق مثلها في البلاد بهذا العصر وفي الاعصر الذواهب ، فماذا اقول وقد رايت الامر جليلا وماذا اصف وقد حملني العجز عن الوصف عبثا ثقيلًا .

أبروم اللسان وصفا لشيء ما له في الدنيا مثال وشبهه

وهذا المصنع العظيم ينبغي ان انبه على ما لمولانا أمير المؤمنين ايده الله من النية الصالحة في تشييده ، وهو ان مواليها الخلفاء من سلفه

الكريم رضوان الله عليهم وان كانوا قد خطوا المدن ووطدوا القصور وشيدوا الأواوين وأعلوا الصروح وبنوا المساجد ورفعوا المآذن وأجروا الانهار وروضوا الرياض واحدقوا الحدائق ، وارتعوا البرك وأغترسوا البساتين المفوفة ، فما قنع مولانا امير المؤمنين ايده الله ، لطموح همته الشريفة ، بالغاية التي وقفت عندها هممهم رضوان الله عليهم في كل شيء . سمعت منه ايده الله مرارا اذا جرى ذكر التعجب من عظيم اثاره المنيفة وضامتها ومجازرة الغاية في فخامتها واحتفالها ، والمبالغة بما لا غاية بعده في تأنيقها ولطف وشيها وتنميقها واستعظام الحاضرين لما بلغ الاتفاق عليها ، يقول : ما بعثني على ذلك الا اني اذا نظرت الى آثار سلفنا الكريم ، اجد آثار الموحدين ما زالت تنازعها فضل تنجيز وضخامة واحتفال اربى عليها، وآثار بني مرين تجاذبها رداء التأنيق وربما شفت في تنميق الحلة ، وبديع الطراز ، فأبيت لاهل بيت النبوة ان يكون الفضل والشرف لآثار من دونهم من الدول على آثارهم ، فلم أرض الا بما يعفي على آثار الدولتين . قلت : فلو قال ايده الله على آثار الملتين لم يبعد عن الحق لقيام الشاهد على صحة دعواه ، وهذا المعيار بين الدول في الآثار انما يرجع الى القصور لا الى مطلق الآثار والا فالمحمدية (1) التي من مشيدات مولانا الامام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد السوس وأم القرى والامصار وملاك باب السودان ذات القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرياض المفوفة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة بلآلئ النجوم المشنفة ، الى **معاصر السكر** الجائمة حواليتها جثوم اهرام مصر ، يتقاصر عن تشييدها اولو القوة من عاد وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد ، ما شئت من توطيد وتشبيد وبرك مستبجرة وجفان كالجوابي وقدر راسيات وحركات هندسية ولوالب فلسفية ومقاييس حسية ، وانهار تتسمن لاجراء راحيتها العظيمة الاخشاب ذرى الاسوار المتمدة الاعراف الى عنان السماء بتدبير وفلسفة تحار فيها حكماء يونان وجنان سليمان ، لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذي هو عند بني مرين مشيد

(1) هذا استطراد عرف فيه بمدينة تارودانت المسماة آنذاك بالمحمدية وفضلها على فاس ومراكش . ج. التازي : مدينة المحمدية الحديثة ومدينة المحمدية القديمة . دعوة الحق يولييه 1960 .

به آية خارقة ، ولا قصة مراکش التي هي عند الموحدین من قبيل الإعجاب ، بل اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء . وحسبي شهادة العيان (رجع) وبنى العمل ايده الله في اختطاط هذا المصنوع العظيم على هذه النية الصالحة وأرتاد له الجانب الشرقي من قصوره الكريمة لاتساع مساحته فاعتم له في الطوالع النجومية ما رضى أهل الرصد اثره وتحينوا اوانه . فكان مبدأ الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافته السعيدة من عام ستة وثمانين (1) واتصل العمل الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم تتخلها فترة ، وحشد به الصناع وأرباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصناع ومهرة الحكمة وجهابذة البناء واولي المعرفة والكفاية في التنميق والتشييد ومن سائر الفعلة وأسارى الدولة خلق عظيم ، يسمع لهم ولما يتألف برحاب القصر وساحته من السويقة(2) ... لشراء الخدمة والفعلة الفواكه المختلفة والالبان واللحمان ، دوى كدوى الاسواق الهائلة ، ويختص هذا القصر الشريف من جميل الالقباب بالبدیع ، لاجرم طابق الاسم المسمى ، لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب العجائب ، يشرع اليه من الابوان في مدخل عظيم عريض المسلك ، تسافر فيه الخطى وتكل القوى ، بعيد الشقة يسبح منه العابر في بحر المديد الطويل ، لا تحصى لياته وتعاريفه بين المدخل المقضى من الباب الاقصى لهذا القصر الكريم ، وهو الذي كمل اليوم من المدخل الطويل المديد تربيعه، وتم توطيده وتنميقة، عنوان المحاسن وترجمان العجائب تتعدد فيه الخطى ويستلب الحجى ، ويسحر بمحاسنه العيون والالباب ، **وإذا افضيت منه الى الدار الكبرى** مثنى الامام نفسه ومطلع شمسسه والفلک الذي تبدو منه طوالع سعده فهناك يخرس اللسان ، وتحار الاذهان ويملك الدهش الجنان ، ويجف القلم ويرتعش لبنان . وهذه الدار ام العجائب وديوان الفرائب أخذ جدارها المنحوت من الفلك المحيط جفوة وعظما جوانب البسيط الافيح ، بديعة الشكل متناسقة الاوضاع متقابلة

(1) يعنسي وتسمائنة

(2) بياض في المخطوط وقد ملاه الاستاذ كتون في مخطوطته بكلمة الممدة ، وافترض السويقة عوض السوق

المحارب والتمائل تزخر من بركها **الخمس** بحار طافية العباب ، قد مثلت فى رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور الادواح المفوفة ، ويخترق صحنها الفسيح الارحاء من هذه البركة البركة العظيمة المرقومة الارحاء بنجوم الفواقع انطافية من اضطراب احشائها ، وقد استدارت بوسط سمائها هالة الباج (1) الاعظم المتلع الجيد السلافي الذوائب والاعراب ، قد ظلت هامة جيد الاعلى بالقلنسوة المنمقة من منحوت المرمر بتمائيل مختلفة من انواع القشاء وعراجين الاعناب والبطيخ والدباء ، تنبع من خلالها ميازيب المياه الدافقة فترشق بسهامها المفضضة نحور الواردين وتنعكس سموتها من الفلك الى الارض فتنساب خلال المحنشة المنحوتة من المرمرات الارقم ، وعلى ضفة هذه البركة سماطان حافلان من ادواح النارج الباسق الافنان تروق العين منه كل عذراء سندسية الغابة جمدة الوفرة ، تتوسم محاسنها من البركة فى مرآة بديعة الصقل ، ونهرها المتدافع مخضر العذار بمماشى الزليج المنمنم الوشى المسهم البرد بالجداول المرمرية . تنتهي قباب هذه الدار الى **عشرين قبة** ، والاربع المتقابلة طولا وعرضا توله العقول وتبهر الناظر وتسبح العين منها فى بحار الحيرة جفاء وعظمة ، وهياكل مائلة تحتقر اهرام مصر ، وتلف العالم فى ملاعتها سعة ورحبا وتسخر بعصور اهل القرون الاولى نقشا وزخرفا وتمويها وصيفا ، متنوعة الاغراض متشعبة الاوضاع من محاريب وتمائيل ومقاصير وخزائن **ومساجد** الطلوات والمتعبدات ومجالس الخلوات والجلوات ، تختص القبة الشرقية منها بسقف الزجاج الملون فسمت (هذه القبة بالزجاجيا) (2) بالاضافة اليه ، منظوم الالواح يفرج السقف المعتم لذلك من شجر الخلاف المموه بالابريز الفائض الشعاع ، واذا رمقت عين الشمس بمحاسن هذا السقف الزجاجي من خلال الكرى وفاضت اشعتها الملونة على الجدران فصبفتها ، رايت نعيما وملكا كبيرا . كيفية تستخف الاطواد الراسية انفعالا وتأثرا ، قد دحيت ارضها بالرخام الصقيل الفضي الملاء ترقص وسطها فوارة خضراء

(1) القصد الى الباز يعنى الحوض فى الاصطلاح المغربى
(2) هنا بياض ملء لدى كون بهذه العبارة بين الهلالين مع استصوابه الزجاجية

زمردية اديم (1) ، ويكنف ابوابها الثلاثة برطال عريض الساحة ضخم العمل
 مثنى الصفوف بأعمدة المرمر تطاول جذوع النخل اعناقا وقوائم الجبال
 غلظا (على متين السواري (2)) النواعم الابدال صفاء الوان ورقة ابشار ،
 قد انعطفت عليها أهلة **الخراسن** الخشبية الجامعة من غلظ الاجرام ولطف
 التأنق ، قد تنوع مسقفها الى **سبع قباب** تفننت فيها الصنائع المقربسة
 الخشبية والمسطحة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريشا ، تحت كل
 قبة من هذه السقف فوارة قوراء كأنما قدت من اديم الدرتميس رقصا
 بالمياه ، وتزهو هذه القبة بهوها المتبرج الزينة البديع النظرة الى
 المشتهي الروض المرع المنظوم بالبديع شرقا ، يشرع اليه من البهو على
 باب يسحر الطرف حسنا ولطفا وتدبيجا انعطفت قوساه المنحوتتان من
 لباب المرمر انعطاف الحاجبين على قائمة من المرمر مسكية اللون ابنوسية
 الغلالة ابقى النحت فى حلق القوسين منه وفى اسارير جبهته الناتئة تجاه
 الروض من البدائع المقربسة اثرا (يزهو على (2) مرور) الجديدين ، بين
 يديه شطرنجية كأنما نجتها المناكب لطفًا وادماجًا ، ثم الى
بركة النهر ذات الباج المتلع الجيد التي تسافر فيها العين غربا الى القبة
 الخمسينية ، وهذه القبة العظمى الشهيرة بالخمسينية قيد البصر
 وانموذج الكمال وعنوان سعة الهمم مثلت بين القباب مثول عقيلة القصر
 المتربعة على كرسي الجمال والكمال وضخامة الجلال أبرزها الاتقان
 وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووضعًا وتأنقا وتفننا وزخرفا تقع العين من
 عظيم هيكلها البارز على ما يوجب البهت ويحير الفكر ، ذات الوفير العظيم ،
 الضخم العمل ، الخشبي التأليف (3) . . . **المديد الجناح** على جوانب
 الارض ، واملت بين العادة اجرام الخشب الارزي المعتم فى المقاطع ،
 المنشود فى اغيال المنابت ، فاضلا اعجاز النخل طولًا وسبابة ، وقام
 بجانيبه عند مركز اجرامه فى الرفرف الهائل المحيط بالدار عقابان
 عظيمان ، ترى النسرين فرقا منهما بين طائر وراقم ، وتبز هذه القبة

(1) لعل الاصل الاديم

(2) زيادة من نسخة

(3) بياض بالاصل فى كل من المخطوطتين

بسقفها البالغ اقصى مبالغ الجفوة والضخامة ، يملك الدهش الناظر اليه كأنما يرمي بطرفه الى قبة الفلك استدارة ورحبا وتجويفا وسموا مكفوا على الجدار بغير عمد ، سوى قدرة الذي يمسك السماء أن تقع على الارض ، مظللا بالبراشيل الضخمة التي غادرت القحط فى المنابت الاشبه والمعادن الحديدية . ولقد بلغت المنارة التي عرج بها المعلمون الى السماء وتسمنوا ذروتها حتى توصلوا الى تأليف أجزاء هذا السقف الضخم الى سبعمائة حمل ، وهو كل زوج من افراد الاخشاب الأرزية الضخمة التي لا يستقل معها المطايا البدن الا عن رغاء يبكي الصخر . ومن الحديد المؤلف لاجرامها مائة قطار ، واعتبر هذا فى السقف الذي استفرغ هذا الوسع فى السلم اليه ، ثم فى البراشيل التي أكنته والتقمته فى جوفها . فسبحان من تطاول قدرته . وأخذ الاحكام مقعر هذا السقف ، فولد فيه أمهات الصنائع وأصول الخواتم من العمل المدعو **بمنقار وميجم** (1) ؟ توليدا يستوقف الناظر اعتبارا واستبصارا وتعجبا ، وانساح من تحته مذيبل الجفت (2) . حتى عام فى بحر من الجص طامى العباب بالعجائب ، وهناك تخارق الاحكام وتماجنت النقوش ، وتفنت الصنائع تديجا وتكريشا وتحرشفا وكتابة تركب حروفها غصون التشجيرات وتخللها قصب الورق اللطيف . ويتصل بشط هذا البحر من اسفل نطاق المرمر الفضي الذي توشحت به القبة واستدار على خصرها مديجا **بالشعر فى وصف البناء** واضح الكتابة بمرمر سجي اللون قد بين فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود ، وساح عنه الزليج البراق الملون ، تترقرق مياه صبغه صفاء ورقة ديباجة ، قد انتظمت فيه الأرز بفرش الارض لفا واحدا مشجرا بالقضيب اللدن المعاطف ، تصعيدا وتصويبا وتحزيفا وبسطا وتركيبا ، يشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينية وتمائيل مذهبة ومفضضة ما بين **أسود فأغرة** الافواه تقذف بأغصان اللجين أنسكابا وحيات رقص رانقة الصفير ، متلمظة الالسن بسلاسل الفضة من سكب الماء ، وقد توسط فى **البرزخ** بين البركتين فوارة رحيبة القطر غريبة الشكل ، كأنما عجت

- (1) منقار وميجم أداتان يستعملهما التجار فى بعض الخدمات الدقيقة ، والمنقار (Mrteline) مطرقة يدها من عود ونهايتها من معدن حاد . والميجم (Maillet) ما يزال معروفا كذلك وهو مطرقة كلها من خشب (يدها ونهايتها) .
(2) بياض فى الاصل ويظهر أن الجفت تحريف لكلمة جصب (Jaspe) حجر كريم

من طينة المسك يعلو جوهرها فرقد ؟ ومدارج النخل ؟ وبهو هذه القبة
الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويها وزخرفا تلقى بصدرة رؤوس
الطير للأسفل نواطق بلسانها الاطراء والايغاء ، وأبوابها المقربسة الموهه
ومصارعها الضخمة تذكر سد ياجوج وماجوج جفوة وعظما ، بين يدي كل
باب فوارة ضخمة متباعدة القطر كأنما هي سجنجل تتوسم فيه
القبة . . . (1) نقوشها ، ومثل امامها البرطال العريض الساحة المتعدد
القسى ، البعيد الامد ، الضخم العمدمثنى الصفوف من جذوعها المرمرية
المائلة بالجبال المنحوتة مدحو الارض بالرخام الصقيل . كأنه صرح ممرد
من قوارير ، بين يديها مسيل الوادي المتدافع يقور فى الارض من تحتها
ومعبرة على جسر من المرمر متعدد القسى ، تكنفها من عن يمينها وشمالها
بركتان عظيمتان مصقولتا الزرد بمدارس النسيم الدائم الهبوب ، قام
بحفافهما سماطان من أدواح النارنج المتفءى الظلال ، ويسمو على رأس
هذه القبة وأختها الزجاجية تيجان متلعة الجيد ضخام العمامم المعتامة من
أكوار نحاسية تراكب الذهب الابريز على سطوحها (2) فيكاد سنا برقه
يذهب بالابصار ، قد نقص عددها من عدد أكواخ تيجان المآذن وتطاطأت
عن نهضتها تأدبا مع بيوت الله ، ويساجل هاتين القبتين الضخمتين ترياها
المتقابلتان عرضا ، والمدعوة منهما بقبة النصر الآية المحكمة والمثل
المضروب فى مصانع الارض جفاء ورحبا وزخرفا ونقشا وتمويها وصبفا
لا تتناهى أوضاعها وأغراضها ، من محاريب وتماثيل ومقاصر وخزائن
ومساجد . . . (3) ومقابن ومناقس حتى لاشتفاف دخنة الشموع الدائمة
الارق ، صونا لعلتها الموشية من درن أنفاسها ، واذا نازعتها لداتها من
القباب السالفة فضل احتفال وجاذبتها ملاءة الطراز أبزت بسقف بهوها
المعتمام من منحوت العاج والابنوس وبسقفها الضخم الرازم على فضائها
الافيح رزوم الغمامة الوشيحة الرداء بالاشعة الاصيلية ، فمن أصفر فى
أخضر فوق مبيض ، كل ذلك بالصنائع المقربسة التي تحار فيها جفاة
العمالئق وحكماء يونان ، واذا نظرت الى غلائلها من الجص المرقومة بكل
يد صناع وذهن ملىء بالحكمة ، نظرت الى ما يحجم عنه البيان ، ويكل

-
- (1) بيــــــــــــــــاص
(2) فى نسخة على مطرحهما
(3) بيــــــــــــــــاص فى الاصل

العبارة تدقيقا وتعميقا وتخليصا وتمويها وادماجا في زليجها المنظوم الازر
 بالفرش تحار الاذهان ويتعلم اللسان ، قد تنادت فيها الصنائع المتفننة
 بالمبارزة وبلغ الاغياء في لطف جواهرها الفردية لفاية لا تستبين العين
 صورها دقة وادماجا كأنما رقمتها الابر اللطيفة ، يعشى العيون
 أشعتها لا ... (1) يكاد يثبت البصر عليها صقلا ، وتبرجت منها القبة في
 حلة من الوشى سابغة تستهان عندها الستور المرقومة والزرايى المبتوثة،
 والبرطال المائل أمامها قيد الإبصار وحلة اعتبار قد استدار قوس خرسته
 العظمى متمطيا فى الهواء كأنما حدق من قوس الغمام جفوة وضخامة ،
 وشاشية سقفه الوسطى خباء مطنب فى السماء تحف به قلانس فارغة
 السمك وعناقيد جعدة التركيب تبدو من خلال خمائل مفوفة من بديع
 النقش ، وزخرف الـ ... ؟ وعمده المرمرية التي انعطفت عليها اهله
 قسيه ، وتقبل القبة منها بثمان تهر الناظر جفاء وطولا ، تتخلل الخضر
 السندسية الغلائل ، منها البيض الحسان ، والفوارة العظمى الراقصة
 بالمياه امامها الغرة الواضحة والشمس البادية التكوين فى الارض . وقد
 جرت مع هذه القبة اختها المتبرجة امامها المدعوة بقبة التيجان ذات
 الابهاء الرحبة الفناء فى طلق ، واستبقتا فى ميدان الجمال والكمال
 وضخامة الجلال استباق فرسي رهان وتتميز هذه بشعار سقف ... ؟
 الذي عقدت سماواتها منه بالصنائع المقربسة ترى وجناتها بشامات زرق
 من سحيق الازورد المزمى بالنضار الفائض الشعاع الى محاريب وتماثيل
 ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنميق رافلة فى حلل الاتقان وملابس
 الاحسان ، **وكم بين هذه القباب** المنيفة من اترابها الكواعب وضراتها
 البيض الترائب من كل عقيلة تكبر ان توصف ، وتجل ان تحصى محاسنها
 وأوضاعها ... ؟ رها كالخضراء الرافلة من فرشها وعرشها فى مطارف
 سندسية ... ؟ الوادي ومركب السفينة ومسرح الطرف الى رياض
 المسرة ... ؟ القوية الظهور بالعمد الضخمة الحظية بملاك المعراج الى
 أوج المصرية الشامخة الانف جليسة النجوم ، وكناس الغزالة الفلكية
 بالغة الصرح الطامن ، بأسنة شرفاته ، كبد السماء الى لداتها تشييدا . . ؟
 وزخرفا ونقشا ورجبا وعمدا ضخمة ، ومحاريب متقابلة ، وتماثيل متناظرة

(1) ببصاص ولعمل مكانه : لا

ومحاسن جمّة ومآرب متممة ، والرفرف الذي يجمع فلك ... ؟ عمامته المعلمة على فودها عجب بروى ، وآية من الايام تتلى ، عظيم الهيكل ، ضخّم العمل خشبي التأليف ، هربت شدة القّب كهفيه ؟ جافى اسمنة الغلمان معقود أسارير الجباه وزوايا القّب بالصنائع المقربسة ، طلق المحيا بالعبيسات المسطرة ، والسواري المصطفة ، سابغ ازر المشيعات الفضفاضة ، قد استهينت فيه معان الصبغ والتمويه ، وأستهلكت النقوش المتماجنة وتلومت بقعراته المخدوشة ، وصفحاته الملس آلات الزخرف فتفننت الصنائع وتخارق الاحكام ، تنطق أعالي طوره ، وأسافلها بلسان الاغياء والاعجاب ، وتنادي مصانع الدنيا هل من مبارز ، ويزيد رفرّف الخمسينية على رفرّف هذه الدار الهائل بكونه مثنى العمل ، فهو على ضخامته وبلوغه اقصى مبالغ الجفوة مر ... ؟ نظره سموا وشموخ انف ، وقد التفت الأدواح ، وتغيّات الظلال وارتفعت الارض على اصول الاشجار. ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الفصون الملد وغلائلها الخضر ، وزهرها الغض وثمارها الدانية القطاف قد افترشت مماشسي حدائقها الغلب المنخفضة عن الدار ، وأرحى القبو الهائل الواصل بين عرضى الدار بالزليج الملمع الثوب ترقص بين الفوارات المرمرية بالمياه السلسالة بحيث يرى المتحدر إليها دنيا تأتي من الارض قد توارت محاسنها بالقور عن لفح العيون ، ينثر ؟ سلطان الفلك من خلال الاوراق دنائير تفترش أرضهم وترقم أثوابهم ، ويحف بهذه الدار ديار عديدة تختص بها أسماء والقاب ... (1) الدار البيضاء والدار الحمراء ، كلها سرحت بها العين رتمت منها فى محاسن جمّة من المياه الدافقة والفوارات الراقصة والنقر المربعة والبرك الريانة ، والسرد المرفوعة ، واذا بلغت الدار التي يفضي إليها من البديع من على يمين الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لابوابها حتى تنتهي الى اقصاها من الجانب الشرقي رايت برنامج المحاسن وأنموذج الكمال ، بناؤها عادي يجلل الأذهان حيرة ، وتناهى التشييد بها والتوطيد الى اقصى مبالغ الفخامة والضخامة وتبز على المصانع الحافلة بغريب الوضع الذي لم يسبق اليه ولا حام طائر فكر عليه ، نتيجة همة صيغت من نور النبوءة المتحدية بالخوارق التي ليست من طوق البشر ومألوف

(1) بياض بالاصل ويبدو أن القصد الى الدار الخضراء

الصور . **لما نظر مولانا أمير المؤمنين** ايده الله صورها الخيالية فى ظنه الشريف وحده الكريم الذي يخترع الاشياء فى احسن تقويم احضر عرفاء المباني فاقترحها عليهم واخذ ايده الله يرى بحاسة الوصف الى اشكالها التي تصورها فلم يكونوا ليهدوا حتى **تولى لهم رسمها بنانه الكريم** فى قرطاس فلمسوه بايديهم وحينئذ اهدوا الى فهم ما لم يوته اولو. الحكمة من يونان فيهتوا ثم اجتهدوا فى تشييدها وفق الاقتراح الكريم والهمة الشريفة المنيفة فانتظمت دوائرها المترابكة بعضا على بعض فى الهواء وطبقا عن طبق ، سماطين متقابلين نظاما يوجب البهت والحيرة بحيث تسمو على قبابها المنيفة غرفها الاثيرة ، ثم لا يرى سكان علوها اهل سفلا مع جلب الضياء الفائض الشعاع للديار السفلى المحجبة عن العليا بحكمة لطيفة المدارك دقيقة المسالك . وانتسجت فوق صحون اعاليها **الشبابيك الحديدية** ، وتمتار المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنظم بنيتها شرقا ذى البركة العظيمة المفروغة للوقود من تحتها من النحاس الاحمر ، تتابها القواديس الفاغرة الافواه اليها من كل جانب فتملا حواصلها وتساقر بها لهذه الديار ، وقد اخذت الالهة لمصبها فى النقر المزمرية بكل دار من ابوين ينبجس أحدهما بالبارد والآخر بالسخن مفدين ؟ بلوالب تنجذب عند الفتل طوع يد التخيير بين الحار والقاتر او مزجهما عند الاستعمال ، فأصبحت هذه الديار مكملة الاراء متممة المآرب ، قد ختم عليها التحصين والمنعة ، وأرخص عليها الاحتجاب سدوله ، بحيث لا يخلص اليها الطيف ، حتى لقد بلغ الاحتفال بينهم فى ذلك مبالغ الاغياء الى اتخاذ **قب منحوت** على شكل الفانوس الكبير مغمسى بصفيح النحاس الاصفر الصقيل ، قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتم لمناولة ما يرد من المرافق والمآكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند الداعية من الاماء والخدم القائمات بخدمة سيداتها من اهل الحجاب العالي فيلقين فى جوفه من وراء الجدار . . . ؟ ثم يدور بوجهه لداخل المنزل فتقع المناولة من غير ان تتراءى الى الاشخاص او تبدو منها للعين قلامة ظفر اغياء فى الاحتجاب ومبالغة فى الفيرة التي صار بها امير المؤمنين المثل المضروب فى عالم الارض ، **وتسمو بمنتهاها شرقا بثية** المجلس الكريم الرافل فى حلل الوشى والتنميق والزخرف ، ثم يزهو الجانب الغربي منها **بالمصرية** الشامخة الانف الغريبة الشكل المستوية على

عود المرمر الناسخ فيها لحكم الجص حتى فى الشباك البديعة التكريش
والرؤوس والجباه المقربسة فاصيحت فى ذلك نسيجة وحدها ، ذات
الغرف الاثيرة والشراحيب البديعة والمجالس الكريمة المرببة على مصانع
الدنيا بيدع النظرة الفاعلة بالنفوس والارواح فعل العقار الحيار . وبالاطلاع
على بستان النهر الذي تسافر منه العين الى رياض وبساتين الملك
التي تلوح خلالها القصور المنيفة كالنجوم العواتم ، ثم الى جانب الخضرة
المحدقة بها على مسافة تناهز اليوم ؟ البرك الريانة والجداول
المنسابة والحدائق الفلب ثم الى بسائط الخضرة ذات الانهار الجارية
والخلجان المتدافعة والسواقي . . . ؟ نابت التي انتسجت منها ايدي
الانواء ، ومجاري الماء ، نمارق مصفوفة وزرابي مبنوثة . وتساجل هذه
الديار فى التشييد والتوطيد والاحتفال والتعداد والاغياء فى مأرب
الاتجاه ؟ والتحسين وجر ذبول المحاسن والتفخيم الديار المنظومة
والمقامات الرافلة فى حلل الدين اللائذة بالعقيلة الكريمة من (قبة النصر)
التي سحت عليها ذبول عزها واناقتها من خلفها ، تحت خفارة السور
الاعظم الطامح الغرف المحيطة بأقطار الدار . ويفوت هذا القصر الفصور
الاولى من مباني الدار العظام ومصانع اولى الملك ، بالمرمر الكثير العدد ،
الضخم العمد الصافي الجوهر الناصع البياض ، المعتمام من المعادن
النفيسة ، تبارى التجار من أهل الحرب فى نقله وجلبه طوع اقتراع مولانا
امير المؤمنين ايده الله من قاصية بلاد البنادقة متهاكين فى تجشم الشقة
البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا الضنن برا وبحرا فى نقل اجرامه
الجافية التي يثود حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها .
وكان **بنو عبد المؤمن** خلفاء الموحدين لما اختلفوا وما ابقوا لتشبيد
قصورهم بمراكش ووكلوا بها همما طامحة لم ترض بالدون ولم تقتصر
على النزر التافه ، قصارى ما انتهت اليه همهم جلب المرمر لها من عمل
المرية بالاندلس ، ثم جاءت دولة بني مرين فأخذوا فاس دار ملكهم وترامت
همم بني عبد الحق ملوكهم الى مساجلة بني عبد المؤمن فى اختطاط
القصور بها وتشبيد المصانع فكانوا ينقلون المرمر لها من قصور الموحدين
بمراكش ، ثم جاء الله بالدعوة الكريمة النبوية والدولة الغالبة القاهرة
العاقبة الحاشرة ، فانفت الهمم الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية أعلى
الله منارها وخذل اثارها من تخريب مدينة قواعد ممالكة الشريفة بتجديد

أخرى كما فعل بنو مرين نهبة سيوفهم العلوية الزيدانية المظفرة ، وتخطى
المرية التي هي قصارى الموحدين الى تخوم **البنادقة** اغرابا بمعدنها الفضي
الاديم المعفود من حصباء الفرد المليء الذمة بما يشاء من الفنون المقترحة،
فاشتملت قصوره من ذلك أيدى الله ومصانعه الشريفة على ما تقاصرت
عنه قدرة الخلفاء الاعاظم ، ودانت بالعجز عنه دول الاعارب والاعاجم ،
فلقد دارت فورا الدار الكبرى من قصوره الشريفة على خمسمائة عمود
مرمرية مائلة كالجبال الرواسي ضخامة وجفاء تسمو القباب وبراطيلها على
مائة منها ، ترجح الواحدة با . . . ؟ من عمد الموحدين المائلة الاشخاص
اليوم مع الشفوف فى المعدن ونضارة النحت ، ثم يتوزع الاربعمائة
الجدار المحيط (بأقوار الدار (1)) ما بين المثلثات الاشكال والمفردات
النابتة تحت السواري الازرية لصق الجدار ، الى اعمدة ضخمة الاجرام
زمردية . . . منحوتة من معادن من عمل بمراكش ، هدى اليها رائد البحث
الناشئ عن طموح الهمة ، فواصل بين البيض الحسان الموائل . . .
القباب ، واما ما تضمنته الحمامات والمساجد والمجالس (وألقاب (1))
والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى ، وقد تخارق الاحكام وتفننت الصنائع
حتى استعمل المرمر فى ملاطم المساجد وقسى الابواب والمحاريب
والتماثيل والمقاصير والخزائن . وقبة النصر مليئة الذمة من هذه الفنون
مثرات اليد من بيضائها وصفرائها وخضرائها متفننة المساجد والمجالس
والمحاريب ، والتماثيل منه رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها
فاصبح البديع السعيد من هذه الآثار الفخمة نسيج وحده فى مصانع
الارض . لا يشق له غباره . . . تلحق القصور الاولى شأوه ، وقد قام على
راس هذا القصر الصرح العظيم الذي لا تطاوله بنية ولا تباريه قامة ،
البادي الصلف العظيم التيه على المصانع بحسن الشكل وتغالي الزين
وجر ذيول الوشى وشموخ الأنف متواضعا ، على عظمتيه ، لبيوت الله
وماذنها حاصدا بمنجله المغرب فى الحسن . . . الظلام لترعاه غزالة
الصبح الكانسة فى أكتافه ، مغربا على الصروح المنيفة بالمجالس الكريمة
المتراكبة فى معارجه طبقا عن طبق ، قد بلغ الاغياء فى الاحتفال فيها الى
تنجيد الفوارات المرمرية اللجينية المعدة للرقص بالمياه الغزيرة التي

(1) من المخطوطة التي اعتمد عليها الاستاذ عبد الله كنون
(1) زيادة فى مخطوطة كنون

زان (بها ؟) منجر (1) الدولاب العظيم والفلك الكبير الداخل فى جملة الآثار العظيمة التي وكل بها أمير المؤمنين أيده الله عزمه فى هذا التاريخ ان شاء الله تعالى ، أسأل الله تعالى أن يمنح مقامه الكريم تماما على الذي أحسن ويحفظ على الاسلام من منحاته الفراء امة كى تقر عينها ولا تحزن . وحمام هذا القصر العظيم الذي تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسن الاختيار فذلكة المحاسن وجموع الخوارق ، وبيت القصيد وبتيمة الجيد ومنتهى الكمال وخاتمة الاختراعات ، ذو الابواب الاربعة التي بفضي منها ، الى قصر مولانا الامام المقدس مهدي الامة رضي الله عنه مألّف الائمة الخلفاء ونشيدة بسطهم الذي يجد منه الحال فيه نشوة لا يستطيعها الجريال ، منقبة استأثر بها على سائر القصور وآية شاهدة على صلاح نية بانيه رضي الله تعالى عنه ، وسقاه الرحيق المختوم فى دار نعيمه . ثم الى حمى العقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى البديع ثم الى باب القصر حيث مقصد الخاصة والبطانة . ناهيك من حمام خارق سياج العادة وعرض الخير للتهمة ، وأعيب ذرع وصفه سبك اللسان . . . ؟ القلم اطلق ، ما شئت من ضخامة البناء وتعالى الزين واختراع الوضع الذي اضحى به سيج وحده . فى حمامات الارض ، يشتمل من عمد الرخام على خمسين عمودا ، دارت فورا الدار منها على اثني عشر جدعا جافية الاجرام ، طافحة الاعناق رقاقة الاديم زمردية الالوان لجينية الرؤوس والقواعد ، وتتوزع البيوت والمساجد والبراطيل والمحارِب بقية العدد ، وانزاحت فوق براطيله المتقابلة . . . ؟ المتناظرة قسى خراسنه الثمانية منعطفة فى الهواء أنعطاف اقواس الغمام خشبية التأليف ، قد تلومت بها آلات الحسن والزخرف ، واستهينت فيها معادن الصبغ والتمويه . وانسحب فوق قبته العادية البناء مسجده العديم النظير وبراطيله المتقابلة الاوضاع، ذبل السقف العجيب المدعو بمنقار وميجم وكله بعمل (المندروش (1)) قيد اللواظ والابصار حسنا وزخرفا وصبغا وتمويها ، وسقايته المغدقة السقيا والميضاة الطويلة الاعناق الدارة المياه المثل المضرروب فى الحسن والتنميق البالغ أقصى مبالغ الاغناء أن ربضاء الاسود المرمرية

(2) فى المخطوطة الثانية : (التي يسمو بها . . .)

(1) المندروش nondrin يظهر انه تحريف لكلمة مندران وهي آلة يستعان بها على نقش العود .

متشابوة بالمياه المصوغة من سد ... ؟ اللجين وسلاسل الفضة ، وقد نسخ المرمر فيه حكم الجص ، فصيفت منه الشباك المعقودة فوق الاساطين والرؤوس المقربسة من تحت الخرأسن ، وتخارق الاحكام فاستعمل فى قسى الابواب وملاطم المسجد والبيوت والمحاريب والمقاصير فادلج يجر ذبول الزهو والفخر على سائر المصانع الشريفة والقصور المنيفة ... ؟ الى الباجين المائلين فى صدر البيت الاقصى من بيوته المعدلة للهواء ، المعتامين من نفيس المرمر لصب الانبوبين المنبجسين بالسخن ، وال ... ؟ رأيت ما يسحر الطرف ويجب البهت حسنا وظرفا واخترعا ، ويتصل بهذا القصر الشريف قبة بستان النهر وهو لقب وضعه مولانا امير المؤمنين ايده الله فى تاريخه علما على الروض الآخذ ما بين لابتى سور القصر وسور القصة قبة لاف ... ؟ بالنهر الذي أخذ ايده الله تعالى فى اجرائه الى قصوره الشريفة . واستفرغ كده فى بنائه العادي عريض المسلك مسبح المد ، كان بناؤه مفرغا من الصخر الملموم ، يشق ما بين أدواح هذا الروض المفوف محفوبا بشجر النارنج والاس ، متدافع السيل غير مغمد السيف حتى ينتهي الى قرابه من القبو المعد له تحت القبة الخضراء فروضة المجاز ومركب السفين ، ومن هنالك نتهاداه البرك والقباب حتى يتصلت من الخمسينية كما قدمنا ، ويقابل باب النهر من هذه الخضراء تجاه القبلة ، وبمنتهى بستان النهر الفضاء الافيح المرتاد للقبة العظمى التي امر مولانا امير المؤمنين ايده الله باختطاطها وتوطيد بنائها العادي فى أزيد من ثلاثمائة شبر طولا ... لحفا (1) ؟ والجم الفغير فى الاعياد والمواسيم والوفود المتتالية على الابواب الشريفة من الممالك القاصية والارسال المتتالية من المشارق والمقارب ، ورسم ايده الله تعالى أن يكون مسقفها من البساط المزيف خلف التمويه والزخرف البديع الخواتم ، والنقش المحدودب الظهر الحافي الاضلاع المصنف بالاخشاب الضخمة المزخرفة المعترضة بين الجدارين مثنى مثنى ، ويشرع باب الى المسرة من بهوها الضخم البناء الرحب الفناء الياجوجي السد ، المفرغ القطر العادي البرج القوي ... ؟ المعقود الظهر بحمل الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار ... سليل الاغياء والمبالفة فى المنعة

(1) كنون : ليسع الحفل والجم الفغير .

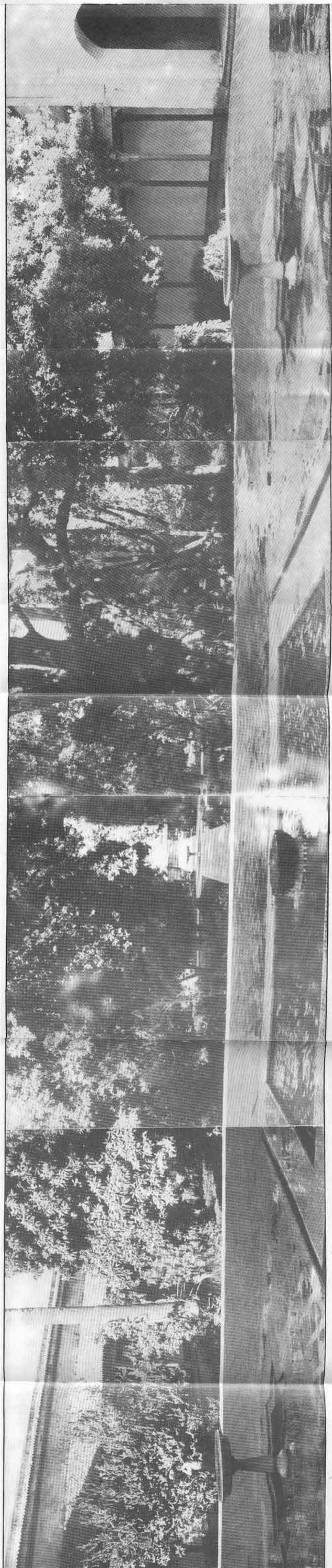
والتحصين ينطبق على الباب المصارع البالفة أقصى مبالغ الجفوة والفخامة
 مفضاة بصفيح الحديد المثبت بالمسمار الضخم التكوبر . وانتظمت
 القصور الشريفة الامامية بهذه البنية العظمى المريية بضخامتها على
 الاواوين الفخمة فى ابداع قلادة والطف سلك واحسن ترتيب ، وذهبت
 بمزيد الفخار على قصور الخلفاء وملوك الارض بديع النظرة التي تسافر
 بها العين على فراسخ من باب قبة الزجاج القبلي بالدار الكبرى
 الى الباب الجوفي من الخضراء ثم الى باب النهر منها وتسمو مع بستان
 النهر ما بين القصب النحيفة الخضور المتمايلة القدود على ارداف المرج
 الثقيلة حتى تند من بابي القبة العظمى متصاعدة مع الطريق المخترقة
 الظلال من عين اليمين وعن الشمال حتى تنتهي الى البنية المنيقة المائلة
 على البركة العظمى فى اعلى المسرة . وهذا الروض المدعو بالمسرة
 المنتظم ببستان النهر . . ؟ الاخذ ما بين لابتي سور القصبه والصالحه
 عرضا ، هو ما هو من بعد الاقطار وانفساخ الخطه ، قد مد على بسيط
 الافق جناحا اخضر تكل فى جوفه جياذ الرهان ، بديع الوضع حسن
 الترتيب تناظر فيه الحدائق الغلب ، من مفروس العنب والزيتون والرمان ،
 ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن كل فنوان دانية وجنات الفاف ،
 تنقسمها طولا وعرضا طرق شتى محفوفة بادراج الآس والتارنج وشجر
 الخابور وخمائل الورد والتسرير ، والياسمين ، وغاب زيتة المربى
 على التقدير كثرة وانبساطا على مناكب الارض عدة لامتياز البلاد ، واذا
 بلغت الى البحر الزاخر من البركة العظمى التي بأعلاه رأيت ما يبلد الفكر
 ويوجب البهت ضخامة وجفاء ورحبا ، يسع ممشى الضخمة الاجرام حلبة
 النخيل عرضا تضطرب احشاؤها اضطراب موج التيار ، وتسافر منها العين
 فى مجرى السفين متباعدة الاقطار تستبين للعين سيما الواقف بعدوتها ،
 والخسس المعقودة بالبناء لصق جدارها شرقا وغربا قيد البصر حسنا
 وضخامة يفور التنور منها بجدول متدافع السيل وتكتنفها ادواح الآس
 وشجر التارنج والاترج وكل غريب من انواع الشجر الذي لا يسقط ورقه
 ولا تخلق الايام غلائلها السندسية . والبنية العظمى المائلة عليها المثل
 المضروب فى حسن المنزلة وبديع النظرة يخترقها النهر المتدافع الى

مصبه (1) في البحر المحيط من البركة المتموجة بين يديها ، وتتصل بها
قبلة مدينة انيقة شرع مولانا أمير المؤمنين ايده الله في تأسيسها ليختص
بسكانها ممالكه الذين ازدهت الخلافة بباهر زيهم وجمال موكبهم لانتقال
حسن مكانها وشريف منزلتها وبديع نظرتها والانهار الجارية من تحتها
والاودية المخترقه لسائطها والرياض المحدقة بجهاتها وال... المشرقة
خلالها ، والقصور المنيفة امامها بغداد ودجلتها وجلق وغوطتها وقاهرة
مصر ونيلها ... »

(1) في الاصل ماصب .

مصادر

- التازي عبد الهادي : تاريخ جامع القرويين : المسجد الجامعة
طبعة بيروت 1972
- ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب
اللبناني
- ابن فيضان ، عبد الرحمن : اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس
- ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك : تاريخ المن بالامامة ، تحقيق د. عبد الهادي
التازي طبعة بيروت 1964
- الضعيف ابن عبد السلام : تاريخ (مخطوط) بالمكتبة العامة
- الفتتالي ابو القاسم : مناهل الصفا فى مئثر موالينا الشرفا ،
مخطوطتان بالخزانة الملكية ومختصر
الجزء الثاني الذي نشره الاستاذ عبد الله
كنون ، والجزء الذي درسه وحققه
د. عبد الكريم كريم
- المقري : نفح الطيب : تحقيق د. احسان عباس طبعة بيروت
1968
- روضة الآس العاطرة الانفاس ، المطبعة
الملكية الرباط 1383 = 1964
- الناصرى السلواي : الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى
نشر دار الكتاب ، البيضاء 1954
- اليفرنسي محمد : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي،
المطبعة الحجرية بفاس ، والطبعة
الباريزية 1888 ، تصحيح هوداس
وترجمته ، مفتشية الآثار (وزارة الدولة
للشؤون الثقافية) .



قصر البطحاء بفاس

